t.me/qurssan

إهداء

إلى جدَّتي التي طبخت لنا الطعام قبل أن تذهب إلى الموت؛ حتى لا يصيبنا من الجوع شيء ونحن نأخذ العزاء! وأوصت أمي أن تغسلها من الدنيا، ولا تتلهَّى عنها بالحزن؛ كي لا يأتي أحد ويراها في ثوب آخر غير ثوب الآخرة. أمي بعد أن نفَّذت وصية جدَّتي ارتدت قِرْطَها. ولأنَّني بنت أمي فعلت مثلها! وها أنا أرتدى قِرْطَ أمي. يا ليلَى إذا أعطيتُك قِرْطِي ذات يوم؛ فلا تأخذيه؛ فإنَّا موسومون بعشق الكمال. فانطلقي وحلِّقي ولا تنظري إليّ. وإذا غضبْتُ منكِ فَخُذِيه، وأخبريني أنه يُؤْلِم أذنيك، لهذا لم ترتديه من وقتها. لكنَّكِ تحفظينه عن ظهر قلب وتحفظينني. فللأمومة سطوة وضعف!

إلى ليلى التي تُشْبِه حين تنام جدَّتي.

إلى أمي الحبيبة والصديقة التي أُشْبِهُهَا وأنا أتحدَّث.

دعاء

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الليل جسد أسود نحيل، وأنا صغير للغاية وسط العتمة، خطواتي في ثنايا الليل لا تُطِيلُه ولا تُنْقِصُه. فقط، تصنع خربشات رماديَّة على ظهره العاري.

كنتُ أفكِّر، ويبدو أنَّهم أدركوا ذلك حين اقتحمْتُ الكمين دون أن أدري. التفكير جريمة! والجريمة دومًا لا تأتي إلَّا على الشارد الذي يسير في الشارع ليلًا.

- بطاقتك؟!

قالها الضابط بحَسْم، لَكِنَّ نبرته انطفأت سريعًا بابتسامة لامعة حين أَمْعَنَ النظر إلى عينيَّ!

- عسليَّتان!

ابتسمت أنا الآخر لوجهه الحاسم، وللبطاقة التي صارت ملكًا لِيَدِه.

- آدم!

نظر طويلًا، ثم أشار إلى كلمة (ذَكَر) وهو يوضح أن الأمر يحتاج إلى بعض التأكيد؛ فقد تكرَّرت حوادث كثيرة عن رجل يتخفَّي في زِيِّ امرأة والعكس. انضمَّ إليه آخر، وكان قد سمع بالفعل حديث الأول.

في الوقت الذي تحرَّكت يَدُ الأول بخِفَّة ليمسك المشكوك في أمره، ويقبض عليه بين أصابعه، سَرَتْ رعشة

t.me/qurssan

طفيفة في النائم الذي تَفَاجَأَ بما حدث، أَحَسَّ بتلك الرعشة بين أصابعه الغليظة، فابتسم باستهزاء. نظرتُ إليهما نظرة سريعة. ابتسمتُ ابتسامة بلهاء ظلَّت مُتَسِّمَرة على وجهي، حتى انفكَّت أصابعه عن جسدي المرتعش. فالخطأ خطَئِي منذ البداية؛ التفكير في ساعة متأخِّرة من الليل حماقة! وخصوصًا في الآونة الأخيرة؛ حيث تستدعي الإجراءات الأمنيَّة كل هذه الاحتياطات الواجبة. التصقتُ بالرصيف منتظرًا إشارة الانصراف التي لم تأتِ.

كان واضحًا للجميع أنَّني رجل؛ وبياناتي سليمة أيضًا. ظَلَلْتُ فترة هناك لا أعرف كم مرَّ من الوقت؟! كُلَّما نظرتُ إلى ساعتي؛ أشارت إلى أنَّني هنا منذ ساعتين، فكَّرت في سؤالهم عن سبب انتظارى، وقبل أن أفعل؛ جاء أحدهم ليطلب مِنِّي البطاقة مرة أخرى، وكنت قد أعطيتها للأول بالفعل. وذهب الثاني إلى الأول الذي نفي وجود البطاقة معه مُوَضِّحًا أنَّها معي، قال ذلك بصرامة واضحة جعلت النقاش حول الأمر مستحيلًا. فتَّشتُ جيوبي، وأخذت دورتي حول السيارات الواقفة جوار الرصيف مثلي، نظرت أسفل السيارات، لا أثر لها!

الأمر خطير فتلك الورقة تحمل هويتي؛ أي: آدم، أنا؟!

t.me/qurssan

ورقة واحدة تُعلِن عن أمي وأبي، ورقة واحدة تصنعني!

خلعت ثيابي أُفَتِّشُها بتمهُّل تاركًا ملابسي الداخلية على حالها؛ فليس بها جيوب! نَفَضْتُ ثيابي أكثر من مرة، ذهبتُ راجيًا الأول؛ فقد رآها من قبل، لَكِنَّه لم يلتفت إليَّ، يبدو مشغولًا. فاتَّجهتُ إلى الثاني؛ فقد كان موجودًا، لَكِنَّه أعطاني ابتسامة باردة وهو يؤكِّد أنه شهد رجولتي فحسب! وعلى ما يبدو أنه كان مشغولًا أيضًا.

والحقيقة، إنَّهم جميعًا مشغولون؛ فضغط العمل والحفاظ على الأمن يتطلَّب الكثير من الانتباه، ارتديت ثيابي في عَجَل، وضعوا الكلبشات في يدي وسط خطواتي التائهة وتَوَسُّلاتي، ركبتُ العربة تسبقني يداي المكبَّلتان، والضابط الأول يُقَدِّم لي سيجارة ويبتسم!

– الصوت: وما العمل لو كان بالبطاقة أنثى؟!

* * *

t.me/qurssan

"مؤخِّرَةٌ مكتظَّة تحمل جسدًا ثقيلًا تحرَّكتُ للأمام قليلًا فبدا (أندرها) الأبيض متَّسخًا! اشتممتُ رائحة جسدها المتعرِّق الحارِّ فأصابني دوارٌ! بدينة شهيَّة تجذبني نحوها أنا المسكين. أُصْغِي إلى جسدي الذي يبكي من جوع قاتل! أنا جائع ويرهقني اللحم الطري الأبيض؛ تقدمتُ راكعًا عند قدميها الكبيرتين: أنتِ لي أيتها الحلوة الكريهة، أشتاق إليكِ حَدَّ الموت!"

طراخ!

- عنكبوت!

انطلق صوت مدام (فَتْحِيَّة) عاليًا قبل أن تهبط بشبشبها الذي خلعته على رأس أحد العناكب المارِّ بين قدميها؛ لتدهس رأسه وما حواه من مشاهد حول ساقيها وأردافها.

المدير يحب البدينات، والبدينات هُنَّ مدام (فَتْحِيَّة)!
وَشْوَشَاتٌ خلف المكاتب كُلَّما طلبها المدير:

- سأعود بعد خمس دقائق!

تتحرك بلحمها وشحمها تكسوها رائحة الدهن الطازج، يلتصق (أندرها) بفخذيْها المترهلين، تُعدِّل ثيابها، وتتحرك ثقيلة

t.me/qurssan

نحو مكتبه.

- خمس دقائق لا تكفي لشيء! يردِّدها أحدهم بصوت خفيض.

يغمز آخر:

- يبدو أنه جهَّز نفسه لكل شيء، وعليها أن تكون سريعة مثله!

أصواتهم لا تتوقَّف ولا تعترف بقواعد الفيزياء البسيطة عن الوقت. و((نُهَى)) تجلس في المكتب المجاور، نحيلة كعود قصب وسوداء.

المكاتب ملتصقٌ بعضها ببعض بشكل خانق، وفي بعض الحجرات قد يتسبَّب قيام أحد العاملين في تحريك جميع المكاتب القابعة في الحجرة، ممَّا أدَّى إلى عدم خروجهم إلَّا للضرورة القُصْوَى قبل الوصول إلى أقصى درجات احتباس البول وانفلاته.

صاعق الناموس يُصْدِر صوتًا من حين لآخر، ويتسبَّب في تلاعب إضاءة الحجرة التي كانت ضعيفةً صفراءَ، الرائحة لا تُطَاق؛ هُمْ ملتصقون بعضهم ببعض داخل مكاتبهم.

تعود (فَتْحِيَّة) بالفعل بعد خمس دقائق، تُرِيهِم ورقة

t.me/qurssan

التعليمات الجديدة، تلتقي عينُها بعيونهم في وميضٍ خاطفٍ مُفْعَمٍ بغيظها ووَشْوَشَاتِهم:

- المدير رشيق! ستنقطع أنفاسه إذا ما انطبع جسدها فوق جسده!

الذبابة تَزِنُّ وتحاصرها، صوتها المثير للغثيان لا يتوقَّف، زنَّات متقطِّعة حول الأوضاع التي ستفشل. ترمق الذباب الذي يحوم حولها في غضب وهي تُردِّد:

- لماذا لا يتركني لحالي؟!

ترفع صوتها وهي تحاول أن تثبت براءتها:

- دي التعليمات الجديدة تِتْنَفِّذ كُلَّها، وهمَرَّرْها عليكم عشان تِمْضُوا!

* * *

t.me/qurssan

لفحني الهواء المُضَمَّخ بالعرق والبول، الزنزانة مُكدَّسة بالبشر، ليس بها موضع قدم. كان طولها مترين، ولا يزيد عرضها عن متر واحد، كلُّنا وقوف حيث لا مكان للجلوس أو الاتِّكاء، كانت أجسادنا محشورة بين القضبان، تحسَّسْت عيني الفارغة: لا لونَ، كل شيء رماديٌّ، لا وجهَ هنا، كل الوجوه سواء، يأكلها الخوف.

استمرَّت عمليَّة الحشر طِيلَة الليل، ونحن على نفس الوضْعِيَّة! كان جردل البول بعيدًا عنِّي؛ فقضيت الليلة كُلَّها ألعن حَظِّي! سمعت اسمي يناديه العسكري:

- آدم.
- هل وجدوا بطاقتي؟!

ابتسَمْتُ فرحًا والعيون ترمقني بِخَيْبَة واضحة؛ سينقص المكان فردًا نحيفًا! وضعوا الكلبشات في يدي، واسْتَمَرَّ دفعهم لي حتى أجلسوني على أحد الكراسي:

- تحقيق!
- اصفر قلبي وسَرَت رعشة في أطرافي، ارتفع صوت المحقِّق:
- طِلْعِتْ عليك قضايا.
- أنا!

t.me/qurssan

- فيه بلاغ من أحد المصَلِّين بيقول إنك كنت بتدعي على مديرك وأنت ساجد بألفاظ مش ولابد، وده طبعًا ضايق المصَلِّين حوليك، وبعدين الدعاء على المدير ممنوع.

لو أنكرت قد يعتبرون ذلك تجاوزًا مِنِّي، فهم لا يخطئون، سأبدو كمن يُعَدِّل عليهم ويُشَكِّك في عملهم، لا بُدَّ أن تكون إجابتي مُرْضِيَة للمحقِّق؛ حتى لا يختلق محضرًا يُدِينُني لسنوات. ابتلَّت ثيابي من العرق، لم يكن هناك وقت للتفكير.

- فيه محضر مقدمه فيك زمايلك في الشغل؛ بيقولوا إنك بتعكَّر المزاج العام، وبتنشر الاكتئاب، إيه أقوالك؟
- حتى زمايلي! أنا كده، وِشِّي ربنا خلقه كده، مش بعرف أضحك، لكن أنا سعيد جدًّا والله.
- إزاي ما بتعرفش تضحك؟! وبعدين ده وشّ ما يعرفش يضحك؟! أنت جاي تهرَّج؟!
- حضرتك فعلًا عندك حق، أهو أنا بضحك (هاهاهاها)، شفت حضرتك كلامهم مش صحيح.
- التهمة التالتة تخصّنا، إحنا كمان كلامنا مش

t.me/qurssan

صحيح؟! أنت عطَّلت الكمين لمدة ساعتين كاملين؟

ارتسم الذهول على فمي المفتوح:

- أنا؟!
- لا أنا يا روح أمك!
- أنا معترف، بس أنا مكنتش أقصد، كنت بأدوَّر على البطاقة.
- آخر محضر بتاع موضوع البطاقة، أنت عارف طبعًا القوانين؟
- طبعا عارفها، محدش يقدر يخالفها في البلد كُلَّها، والبركة فيكم، أنا اِدِّيتها لواحد من الضباط وشافها كويِّس بعد كده اختفت!
- اللي مكتوب عندي إنك مديتهاش لحد، ما كانتش معاك بطاقة من الأول. عندك كلام تاني؟!
- أنا طول عمري في حالي، اللي حضرتك تشوفه.

دثَّرني صمت ثقيل وخوف أكبر، لم أشعر بالضربة القادمة من الخلف، إلا حين انسكبَتْ على وجهي بقع الدم. وقتها فرغ المكان مِنِّي! حيث ارتفع جسدي إلى سقف الحجرة. وانطفأت الإضاءة لأقبع في ظلام دامس.

t.me/qurssan

* * *

t.me/qurssan

الطبيب الذي فشل في إنقاص (فَتْحِيَّة) بعض الوزن، بالتأكيد سيفشل في زيادة (نُهَى) وزنًا إضافيًّا. مُرَتَّبُها الذي ضاع على الشوكولاتة والمياه الغازيَّة وسندويتشات البطاطس – لم يصنع لها سوى كِرْشٍ صغير. كرة مترهِّلة في المنتصف، وعيدان قصب حولها من الأعلى والأسفل، مما أثار غيظها، لماذا ترهَّلت بطنها بتلك الطريقة؟! ألقت بورقة النظام الغذائي وهي تُردِّد:

– أبو شكلك مش فاهم حاجة!

في منتصف الحجرة يقع مكتب مدام (فَتْحِيَّة) "عنكبوت"، وهي مديرة شُؤُون العاملين، وعلى يمينها مكتب آنسة (نُهَى) "البايرة"، وعلى الناحية الأخرى أستاذ (آدَم) "المتغيب" منذ شهر.

لا أحد يكترث لغياب (آدَم)، قالت (فَتْحِيَّة):

– غطس فين الموكوس ده؟! مش هيلاقي زي المصنع ده أبدًا.

لا أحد ينتظره سوى (نُهَى)؛ تنتظر نظراته الخَجْلَى، حَمْلَقَتَهُ في بلوزتها القديمة المنقرشة ليتجنَّب النظر لعينَيْها. بحثت

t.me/qurssan

عن عنوانه المسجَّل في سِجِلِّ البيانات، لكنَّها عرفت من بعض الكلمات المتناقلة أنه قد تغيَّر. الكلمات لا تُخبِر سوى عن القليل، فهو دومًا مُنْكَبٌّ فوق الدفاتر، تلتصق بوجهه حسابات المصنع، وإجازات العاملين. لو كانت (نُهَى) أجمل قليلًا؛ لو كانت مقبولة الوجه كغيرها من الفتيات؛ لحملق في وجهها كما تُحَمْلِق هي في عينيه العسليَّتين، ولا تكتفي!

كم أنت سيِّء الحظ يا (آدَم)؛ لأنك تجلس أمامها مباشرة! جميع رجال المصنع يُشْفِقُون لحالك. تكرهك (فَتْحِيَّة) وأحيانًا ما تَشِي بك للمدير:

– شكله ملخبط ودايمًا ضارب لخمة، هيمَشِّي الشغل ازاي ده؟!

تسمع كلماتها؛ فالمكان ضيِّق وينقل جميع الهمسات، فتتلعثم وتتعرَّق حتى تغرق ثيابك، ثم تتصنَّع الطَرَش لِتَنْكَبَّ ثانيَةً على الأوراق. ترمُق (نُهَى) مديرتها بغضب، لكنها لا تملك الدفاع عنك.

أيام طويلة دون أيَّةِ أخبار! كُلَّما انفتح الباب وسأل أحدهم:

– (آدَم) ما جاش النهاردة؟ غريبة!

t.me/qurssan

انسحبَتْ روح (نُهَى) خلف الباب الذي لا يُفصح عما تنتظر. يا (نُهَى)، ماذا سيحدث لو أتى آدم؟ لا شيء! لا يفيد الانتظار، ربما تنتظره حواء أخرى في مكان ما، في الانتظار موت، سيُميتكِ المكتب الخانق دون صوته وضحكاته الخافتة، ويقتلكِ الخوف، ستسألين نفسك وأنتِ تتناولين برشامة الصداع هل ترك المصنع؟ وهذا كل ما في الأمر؟! أم أصابه مكروه دون أن تعلمي، وكيف تعرفين؟! فهو يشبه رَحَّالًا غامضًا يتناقل الناس سيرته، ربما بلا هدف أو يقين!

لم يكن أحد يأتي إلى المصنع بسيَّارته الخاصَّة؛ الجميع يركبون أتوبيسات المصنع، وبالتالي لا أحد يأتي متأخِّرًا؛ كي لا يُفَوِّت وسيلة مواصلاته، منذ دخولهم من البوابات الرئيسيَّة وهم يتحركون بخطوات سريعة، لأوَّل وهلة تشعر أن الأجواء غريبة، لكنك سَتَعْتَاد الأمر في النهاية، ورغم أنهم يسيرون بشكل عشوائي، لكنَّ عشوائيَّتهم تلك كانت منظَّمة إلى حد ما، فمع وجود عِدَّة أرصفة –حتى لا تطأ أقدامهم الحشائش والورد المزروع أمام مبنى الإدارة– كان الجميع يدهسون الورد ذهابًا وإيابًا، حتى الموظفون الجُدُد كانوا يتبعون الخُطى دون تفكير؛ فيسيرون كما يسير الجميع.

t.me/qurssan

* * *

t.me/qurssan

اعتدتُ ترتيب خطواتي على الطريق حتى لا أرى وجوه المارَّة ونظراتهم التي تمشط جسدي من أسفل لأعلَى، أحاول جاهدةً أن أنظِّف الهواء من ألقابهم: نُهَى البايرة، نُهَى السودة، عود القصب، نسخة من أبوها، ما فيهاش غير شعر، شعر غزير حريري، شعر أبي، فقد ورثته كما هو، أسود كقطع الليل المظلمة. سألني ابن الجيران الذي يسكن في الشقة المجاورة أن يلمس شعري؛ لم أمانع، كنت صغيرة وقتها، وهو أيضًا كان صغيرًا، وإن كان يفوقني بسنوات قليلة. نزلت حوش العمارة وبدأ يفك ضفيرتي السارحة لأسفل ظهري، تتحرَّك يداه على قطع الليل تُفَرِّقُها، وتَعُدُّ من بين خصلاتها النجمات السارحات. لا قمر الليلة، فقط سماء مظلمة وتِوَك صغيرة طفوليَّة، أصابني خدر أخذ طريقه من رأسي إلى قدمي، لم يترك لي النعاس أيَّة فرصة للإفلات، كنت سأخبر أمي وأطلب منها أن تعبث بخصلات شعري لأنام، لكن أمي غارقة دومًا في "مواعين" المطبخ، كما أن أبي لا بُدَّ له أن ينام أيضًا.

فَرَدْتُ جسدي، وأرحت رأسي على فخذه، أصابته رعشة وخدر لا يشبه النعاس، فقد كان يوقظ فيه شيئًا لم يعرفه من قبل.

t.me/qurssan

لا أحد يعرف السبب الحقيقي وراء اختفاء الضفيرتين، الجميع يتحدَّث، ويمصمصون شفاههم:

- هِيَّ فيها غير شعر عشان تقصه.

وحده ابن جارتي كان يعرف الحقيقة! صرخاتي بين يدي أبي على درجات السلم، وأنا أشرح له كيف غلبني النعاس، وأنه لم يُرِد سوى رؤية شعري عن قرب؛ لكنه لم يستمع لكلماتي الصغيرة، المقصّ الذي تستخدمه أمي في قصّ زعانف السمك، أخذ يتحرك بصدئه على شعري الحرير مُصدِرًا صوتًا مزعجًا، اقشعَّر له جسدي.

اشتريت بالضفيرتين فستانًا به زهور كبيرة وشبح طفلةٍ شبح أسود صغير لفتاة تتطلَّع لتلك الزهور. المبلغ المتبقي كان كافيًا لتشتري أمي شبشبًا رخيصًا، كانت فكرتها منذ البداية، قالتها وهي تصطنع الضحك، لكن سريعًا ما تحوَّل التصنُّع إلى واقع؛ حيث أخذت تضحك بعد أن خلعت جزمتها الممزَّقة، لم تنتظر عودتنا إلى البيت لارتدائه، بينما ظَلَّ الفستان جديدًا على حاله، شهور قليلة وانتهى كل شيء، بدأ شعري يزداد كالبحر الهائج، وقفْتُ أمام المرآة أتأمَّل جماله، أعبث بعناقيده الحريريَّة؛ لكنَّ النعاس لم يطرق بابي، ولم يحاول الولد أن يراني

t.me/qurssan

مجدَّدًا، صار يتجنَّبني كغيره من الصبيان. اعتدت ألقابهم كما اعتدت لفظ اسمي، لكنَّ العجيب أنهم في كل مرة يختبرون طريقة موت جديدة لجثة متوفاة. الموت لا يرهق الموتى لسوء حظهم! أمسكت مقصّ السمك وتشمَّمت رائحته الزفرة، نظرْتُ بتحدٍّ إلى وجهي المبتسم داخل المرآة، والمقصّ يتحرك بصدئه على شعري الحريري ليصدر صوتًا مزعجًا.

دولاب ملابسي تحوَّل إلى حديقة ورد وأشباح كثيرة، تجذبني الفساتين المنقوشة؛ ولا أَمَلُّ من شرائها، رائحة الزهور انتشرت في أنحاء البيت بأكمله، وسط صرخات أمي وهي تقول:

- عاجبك الهدوم المقطَّعة اللي طالعة نازلة بيها.

نظرات أبي المغتاظة لهيئة شعري القصير، تفتِّش بين خصلاته عن خطيئة ارتكبْتُها، كُلَّما خرجْتُ من حجرتي وشعري لا يتجاوز أذني؛ أخذ يتبعني يبحث عن السبب. أرمقه بتحدٍّ واستهزاء، وهو يتهرَّب من نظراتي السريعة الخاطفة، ينتهز أي خطإٍ بسيط ليُخرِج زعيقه المحبوس، لم أعد أبالي، ولم أترك لشعري أيَّة فرصة لاسترداد طوله من يومها.

اطمئن يا أبي؛ لم يَعُدْ شعري قصيرًا فحسب؛ فأنا

t.me/qurssan

الآن صلعاء!

* * *

t.me/qurssan

أفقْتُ على يدين مكبَّلتين في القضبان ورقبة مربوطة بالجنازير، رقبتي مسحوبة بشدة تكاد تلتصق بالقضبان في ألم صارخ، الإضاءة تجرح عينيَّ، كانت الزنزانة خالية. أين ذهب الآخرون؟! انتبهت إلى جسدي، عاريًا تمامًا، سحبت عُرْيِي أتلحَّف بالزنزانة علَّها تصنع ساترًا حولي. انفتح الباب وارتفع صوت الضابط الذي رأيته أوَّلًا في الكمين:

- لسه مش لاقي بطاقتك؟!
- إشمعنة أنا؟!
- عشان أنت (آدَم)!

اقترب مِنِّي بعد أن خلع بنطاله؛ انقبضَتْ معدتي، داس على قدمي التي تواجه جسده، لمحْتُ ابتسامة على وجهه، بدا طويلًا شامخًا تكاد رأسه تلتصق بالسقف، كنت قُرْبانًا مذبوحًا لإله مُقتَدِرٍ يعرف حجمه جيِّدًا، وأنا هالك في قبضة يده. اقترب من أذني ليخبرني أنَّني أجمل من النساء؛ جسدي رشيق مثلهن، وعيناي عسليَّتان، ثم استطرد وهو ينبش جسدي الأسمر العاري:

- لا بُدَّ أن هناك خطأً في البطاقة.

انسحبْتُ بين يديه وهو يحلِّق في سماء الزنزانة، ويمتطي

t.me/qurssan

امرأته المحبَّبة الوديعة، غاص داخلي وارتعش بالنشوة، وصرخ حين وصل إلى أقصى درجات المتعة الممكنة، ضحك فاهتَزَّ جسدي بقهقهات الباشا وخيوطه الصفراء النَّتِنَة. كانت لها رائحة شيء أصابه العطن من طول التخزين.

لم يكن هناك مجال للمقاومة؛ عدوِّي خلفي لا تطوله يدي، وجسدي تضوَّع بين يديه عجينة هشَّة، وتضوَّع جسده بين أقدامي أَلِفًا تصل للسماء، وأنا كامرأة أسُبُّه، وكامرأة أبكي.

عيناي العسليَّتان استحالتا إلى لون الأشياء التي لا تتغيَّر، جردل البول في الناحية اليُمني، القضبان التي تحيط بي من كل جانب حيث تبدو زنزانتي كالقفص، وفي خارجها يمكنني رؤية بقعة ضوء لا أعرف مصدرها؛ فليس هناك نافذة. هناك أيضًا بطانية خشنة ليس لها لون محدَّد، ربما كانت سوداء ومع عوامل الزمن صارت باهتة، تشبه فرو فأر ميِّت بجوار الرصيف، ولها رائحته أيضًا. تقبع البطانية على سرير يكفيني، وفي ذلك أمر حسن! حوض وحنفيَّة لا تأتي بماء. يقع قفصي داخل مَمَرٍّ ينتهي بحائط مُصْمَتٍ؛ فلا ترى عيني سوى الفراغ الذي لا ينتهي، منذ فترة طويلة وأنا هنا، فترة كافية لِأَنْ أنسى كل شيء غيرها.

t.me/qurssan

- ما اسمي؟!

أين أبي وأمي؟!

لماذا لا يزورني أحد؟!

لماذا أنا هنا؟!

أنا لم أفعل شيئًا، كل ما في الأمر أن هيئتي لم تَرُقْ لهم، أو أنَّها أعجبتهم لحَدٍّ بعيد!

لماذا أنا هنا؟!

يرتفع صوتي ولا يُجيب الصدى، والزنزانة لا تُرَدِّد غير صوت أنفاسي وضحكات الباشا!

طعامي موجود داخل طبق متَّسخ وصينيَّة أكثر اتِّساخًا، اتَّجهت نحو جردل البول، فتحت سوستة بنطالي ليتحرَّر جزء مِنِّي، فبعد يومين سأستيقظ لأجد الجردل فارغًا! أهش الذباب الذي يهرع نحو وجهي، أبتعد عن الجردل، وأجلس القرفصاء لتناول طعامي بعد أن أمسح يدي في جوانب ملابسي، الطعام يُوضَع دومًا أثناء نومي. في البداية كنت أتلصَّص لرؤية أحدهم لأسأل عن مصيري هنا، لكنَّني أدركت بعد ليالٍ طويلة بلا نوم أن ذلك غير مُجْدٍ على الإطلاق. بعد أن انتهيت من طعامي تكوَّمت في المسافة بين القضبان والسرير، وهي المسافة التي لا تكفي إذا فكَّرتُ في فرد رجلي؛

t.me/qurssan

سألت نفسي: هل الزنزانة ضيِّقة؟! أم أنَّني أطول من المعتاد؟!

شعرت بحركة طفيفة بجوار الصينيَّة، عنكبوت، وفي الوقت الذي تحرَّكت يدي لتمسك به؛ كان قد انطلق بحركة طائرة إلى أعلى نقطة في الزنزانة فوق جردل البول، حاولت تجاهل وجوده، لكنَّني لم أستطع، فأنا وحيد منذ فترة طويلة.

* * *

t.me/qurssan

انتبهتُ إلى صوت يَشُقُّ الصدى:

- عاهرة! (فَتْحِيَّة) عاهرة!

كلمة واحدة وانطلقت خلفها الأصوات في نشيد محموم:

- عاهرة! عاهرة! عاهرة!

امتلأت أفواههم بالكلمات التي يصبُّونها فوقي كالحميم، وهم يُضَيِّقون الخناق حولي ويصنعون دائرة، لاحت لي فُرْجَة صغيرة بين اثنين منهم، انطلق جسدي الثقيل يتدحرج ككرة ثلج تَلْقَى مصيرها المحتوم، استطعت الخروج خارج حدود جنونهم، بَدَا لي المدير غير بعيد، ذهبت إليه أستنجد به؛ ابتسم لي في خُبْث، وأشار لهم ليتابعوا مطاردتهم، اكتشفت أنِّي أبكي! قلبي يصرخ من أثر المجهود، وصدري يطاوعه صعودًا وهبوطًا، والبوابة تتآمر عليّ ولا تأتي، وصلت للسُّور والسيل الهادر خلفي لا تفصلني عنه سوى خطوة واحدة، في الشارع لن يتمكَّنوا منِّي، اقتربت من أسوار المصنع مذهولة ألتقط الأنفاس المتقطِّعة، أسوار المصنع صارت أعلى بكثير مما كانت عليه، تصل لطرف السماء وتلامسه بسهولة! ولا وجود للبوابة جريت بمحاذاة السور. لم يبقَ لي سوى مواجهة السيل الجارف، انقَضُّوا

t.me/qurssan

فوقي حيث امتزج لحمي المضغوط بالسور، فأوشك على الانفجار، بينما هم يخلعون ثيابي كاملة وسط شهقاتي التي تبحث عن بعض الهواء؛ اسْتَفَقْتُ على صوت زوجي يهزُّني بقوَّة؛ أنا على سريري! هدأت قليلًا عندما أدركت ذلك، كان وجهه فوق وجهي، غارقًا في عرق بَلَّلَ جسده العاري الذي كان يهتزُّ وينتفض. سَكَنَتْ حركة صدري؛ لكنِّي ما زلت أشعر بانعدام الهواء:

- بتزعقي ليه؟! أنا غسلت سناني زيّ ما قولتِ وحطيت برفان.

انتبهت إليه، أَوْمَأْتُ برأسي بنفاذ صبر:

- أنت خلصت؟!".

* * *

t.me/qurssan

فرح أخته غدًا، ويحتاج إلى إجازة ضروريَّة، اتَّجه السجَّان (جابر) بعد أن وضَّب بدلته إلى صديقه (متولي) ليسأله عن هيئته؛ أكَّد له أن هيئته ممتازة ولا غبار عليها، فالباشا معروف عنه تصيُّده للأخطاء. بدأ يحكي عن فرح أخته التي تعتبره أبًا لها، وضرورة أن يتغيَّب عن عمله غدًا، مُوَضِّحًا للباشا المهام التي لا يُمكن لأحد غيره في الأُسْرَةِ القيام بها، لكنَّ الباشا قاطَعه؛ فهو لا يطيق مثل هذه الإطالة، رفض طلبه لأنَّه مَحِلُّ ثقة، والعمل لا يسير بدونه، لكنَّ (جابرًا) توسَّل إليه؛ فهو لم يتغيَّب عن العمل ولو ليوم واحد منذ خمس سنوات، أَنْهَى الباشا تَوَسُّلَاتِهِ بإشارة الخروج؛ فالأمر محسوم.

تحرَّك (جابر) بخطوات ثقيلة، (متولي) أوَّل من تلقَّفه عند خروجه، كان واضحًا للجميع أنه لم يَنَلْ طلبه، عُودُه مُقَوَّس كعصا نال منها السُّوس؛ فلم تَعُدْ تَقْوَى على الحركة، فقط تنتظر السَّقْطة التي ستقسمها لأجزاء متفرِّقة يصعب جمعها، سأله (متولي):

- هو شتم أمك؟!

أَوْمَأَ (جابر) نافيًا، مُوَضِّحًا أنه قد أثنى عليه، وأخبره أنه مَحِلَّ ثقة، وأن العمل لا يسير بدونه، ولم يسبَّ أمه تلك

t.me/qurssan

المرَّة.

عَلَتْ على وجهه ابتسامة رضا؛ فالباشا معروف عنه حُبَّه للأمهات، ابتسم (متولي) وهو يلكزه في كتفه:

- ده راضي عنك يا (جابر)، وِتْقُولِّي أجازة! أجازة إيه دلوقتي؟!

* * *

t.me/qurssan

أنكره الجميع! هذا حظ الوحيدين! كَفُّوا عن مضغ سيرة (آدَم)، عندما أتى أهله للسؤال عنه في إدارة المصنع – وقتها– تأكَّد للجميع أنه لم يترك العمل طَوْعًا، وكان أمرًا عاديًّا أن يكون مختفيًا في مدينة مُخيفة وغاضبة. ربما أثار غضبها بِرَدٍّ ساذج مثله، أو ربما قد تجاوز حدوده وأعلى صوته قليلًا حين حَدَجَتْه نظرة غليظة تنادي: "بطاقتك".

بكت (نُهَى) طويلًا، وزاد حزنها أن يصبح (آدَم) مُجَرَّد اسم في السجلات المنسيَّة على الأرفف. كأن لم يكن له وجود، وإذا أخطأ وسأل أحدهم عنه، حدجه آخر:

– من آدم؟!

فعلاقةٌ سطحيَّةٌ كتلك؛ قد تجلب ما لا يُحصَى من المشكلات، جميعهم خائفون؛ حيث إنَّ احتمالات اختفائه معروفة وخصوصًا في الآونة الأخيرة. فما المانع أن يكون قد عَكَّر المزاج العام بتلعثمه المستمر، أو أن يكون هناك تشابه بين اسمه واسم إرهابي خطير، أو أن يكون قد مات –وذلك أفضل على كل حال– وأسباب الموت كثيرة وتافهة، فمن الممكن أن يكون قد غرق حين غرقت مدينته تحت المطر، أو أن تكون رأسه قد تفجَّرت برصاصة طائشة في شارع غاضب، وسيسأل

t.me/qurssan

الناس:

- من أين أتت؟!

لكنهم لن ينشغلوا بذلك طويلًا؛ لأن جسده المدمى سيعيق المرور، مما يدفع بعض الإيجابيِّين لحل الأزمة بزحزحة جثَّته بعيدًا بجوار أحد صناديق القمامة! أو ربما قد تسمَّر ولم يحسن التصرف كعادته أمام سيَّارة مسرعة، ولِأَنَّ سائقها خائف -أيضًا- من السين والجيم؛ فقد تركه غارقًا في دمه، وربما كان السائق أخاه، ولم ينتبه، فالخوف قاتل ومجرم، سيلوم نفسه كثيرًا حين لا يعود (آدَم) إلى المنزل ويقول:

- كيف قتلت أخي؟!

لكنَّ حزنه لن يُغيِّر ما حدث، سيصمت أخوه ولن يُخْبِر أبويه، وربما سينسى بعد فترة ليست طويلة ليظَلَّ (آدَم) نبيًّا مُثْقَلًا بخطيئة الآخرين التي هي ربما خطيئته منذ البداية!

* * *

أنا (نُهَى) الصلعاء، السوداء، القبيحة؛ ورثت كل شيء عن أبي الذي أكرهه؛ وجهه الرجولي السخيف، جبهته العريضة، حاجبيه البارزين، أنفه الأفطس الكبير قليلًا، شفتين عاديَّتين، شعره الأسود الفاحم؛ شعر جسده الكثيف، ثم

t.me/qurssan

صلعته.

لملمت جسدي، واعتدلت في جلستي:

- صلع وراثي!

قالها الطبيب بأريحيَّة حين فرك فروة رأسي، أمسك عدسته المكبِّرة وألقى نظرة أخرى، ثم شَدَّ بأصابعه شعرتين، وضعتُ الطرحة وأنا أُخْفِي رأسي، كتب روشتَّته وهو يؤكِّد أن العلاج يحتاج لوقت طويل حتَّى أشعر ببعض التحسُّن.

الأمر وراثي، لكنه لا يظهر إلا في مرحلة الشباب؛ ابتدأ الأمر بتساقط بسيط لشعري القصير، حتى ذلك اليوم الذي انساب كالشلال على منحدرات جسدي تاركًا جذوره للأبد، لم أشعر به للوهلة الأولى؛ فلونه لا يختلف كثيرًا عن لون جسدي، لكنِّي رأيت خصلات كاملة على أرضيَّة البانيو البيضاء الناصعة، خصلات تتهادَى ببساطة تامَّة، شهقت منادية أمي:

- دثِّريني! دثِّريني!

ظلَّت معي طوال الليل تصنع لي الكمَّادات؛ حيث إنَّ حرارتي ارتفعت فجأة، بدأت الهلوسات التي تفصلني عن الواقع، أو ربما تسحقني داخله، كنت أَشْبَه بِنَبِيٍّ أتاه الوحي منذ أيام

t.me/qurssan

قليلة، الوحي الذي غيَّر حياته ربما للأبد.

وكعادة الوحي يتنزَّل عليَّ مرات عديدة، لتظلَّ المرَّة الأولى هي الأثقل على النفس، وكعادة النبي يزول الفزع، ويبقى جلال المشهد وقدسيَّته، المشهد يتكرَّر على وسادتي، وفي غرفتي، وأثناء تمشيطه؛ لكنَّني أعلم جيِّدًا أن الأنبياء جميعهم رجال.

بشعري هذا صِرْتُ نسخة طبق الأصل من أبي! أمي جميلة بيضاء، وخدَّاها مُشْرَبان بالحمرة، حتى بعد كل هذه السنوات، لماذا تزوَّجت بهذا الرجل الأسود القبيح؟!

اقتصرت علاقتي بأبي على بعض الأموال لشراء الأدوية! كنت أبتعد عنه؛ فكُلَّما رأيت صلعته اللامعة السوداء أصابني القلق، لكنَّ آخر طبيب أخبرني أن هذا لن يحدث؛ فالصَّلع لدى الفتيات لا يصل إلى تلك الدرجة، ابتلعت ريقي، من يضمن؟!

* * *

t.me/qurssan

- هل من أحدٍ هنا؟!

سمع (آدَم) صوتًا قريبًا منه، لم يصدِّق نفسه في البداية وظَنَّ أنه يحلم، متى يصبح الواقع حلمًا؟! فهو هنا منذ فترة طويلة ولم يشعر بوجود زنزانة قريبة، هَمَّ من رقدته سريعًا في ارتباك ملحوظ، وهو يحاول السيطرة على حركاته المضَّطربة، وقف على السرير ليتمكَّن من رؤية أوسع، ونادى بأعلى صوت يمتلكه:

- أنا هنا!
- الصوت/السجين: وأنا أيضًا هنا.
- آدم: ما اسمك؟!
- السجين: ولماذا تسألني؟! أنت الذي تحدَّثت أوَّلًا، فلا بُدَّ لي أن أسألك وليس العكس.
- آدم: لا، هذا غير صحيح. أنت من تحدث أوَّلًا، فأجبتك: أنا هنا.
- السجين: لكنِّي لم أكن أعرف أنَّك هنا لأُحدثك!
- آدم: إنَّني هنا منذ فترة طويلة.
- السجين: أَلَا تعتقد أنَّها قصيرة؟! في النهاية الأمر يعود إليك، لكنَّك إذا قارنت نفسك برجل قضى عمره كُلَّه في السجن، فلا بُدَّ أن تشعر أنها قصيرة للغاية، ولكن

t.me/qurssan

يبدو أنها طويلة بالنسبة لك، على أيَّة حال الأمر نِسْبِيٌّ في النهاية؛ لذلك أُصِرَّ أنها قصيرة!

- آدم: ليست معي ساعة، حتى وإن كانت معي؛ فإنها ساعة غبيَّة تقدِّم نصف ساعة كاملة.
- السجين: أعتقد أنها كانت تُؤَخِّر نصف ساعة كاملة، يبدو أنك هنا منذ فترة قصيرة إلَّا نصف ساعة!
- آدم: وكيف لك أن تعرف؟! أنت لا تعرفني سوى من دقائق! أنا متأكِّد مما أقول، كما أنَّني متأكِّد من حديثي معك، إنها فترة طويلة للغاية!
- السجين: يبدو أنك واثق أنك تحدثني الآن!
- آدم: بالطبع.
- السجين: لكنَّني غير واثق تمامًا، فربما أنت مجرَّد صوت في عقلي المريض الذي أتعبته الوحدة وكادت تقضي عليه، صوت لا يعني شيئًا على الإطلاق، مجرَّد هلوسة صباحيَّة تُسلِّيني، لكنَّني سعيد بثقتك على كل حال، ما اسمك؟
- آدم: آدم، على ما يبدو!
- السجين: كنت سَأُجَنُّ من الوحدة، لا بُدَّ أنك تعرف ذلك الشعور، وأخيرًا وجدتك يا آدم.

t.me/qurssan

- آدم: إذن كنت تحدثني منذ البداية؟!
- السجين: لا، ليس الأمر كذلك، كنت أنادي على أَيِّ شخص، سيُقضَى عليَّ لو لم أتكلم.
- آدم: إذن أنت كنت تكلِّمني منذ البداية؟!
- السجين: حقًّا، هل أنت أيُّ شخص؟!
- آدم: نعم، نعم، أنا أيُّ شخص!
- السجين: إذا كنت أنت أيَّ شخص، ونستطيع التحدُّث سويًّا، والتفاهم بلغة واحدة، فمعنى ذلك أنَّني أيُّ شخص مثلك!
- آدم: أَمْرٌ بديهي، ما المشكلة؟
- السجين: هل لديك يدان وقدمان ورأس؟
- آدم: بالتأكيد!
- السجين: لكن ذلك لا يثبت أَيَّ شيء، ألاف الحيوانات والكائنات الأخرى لديها يدان وقدمان ورأس.
- آدم: ما الذي تقصده؟! إنه لَأَمْرٌ مضحك للغاية، السجن أثَّر على عقلك للأسف!
- السجين: منذ متى لم ترَ أحدًا؟
- آدم: منذ فترة طويلة، لم يأتِ أحدٌ لزيارتي،

t.me/qurssan

والتحقيقات كما تعرف تَتِمُّ في الظلام.

- السجين: إذن أنت لم ترَ الناس لفترة طويلة، وساعتك تقدِّم نصف ساعة كاملة كما تقول، فأنت لم ترَ الناس منذ فترة طويلة ونصف ساعة، ربما لا تشبههم تمامًا وقد نسيت.
- آدم: هناك أشياء لا تُنسى، حتى لو لم أرَ الناس لبقية حياتي القادمة.
- السجين: صِفْ لي نفسك حتى أعرف إذا كنت أشبهك أم لا؟
- آدم: لي يدان وقدمان ورأس، أنت إنسان مثلي، الأمر بسيط!
- السجين: ليس لدى مرآة لِأَتَأَكَّد!
- آدم: وأنا -أيضًا- ليس لدى مرآة.
- السجين: وإذا لم يكن لديك مرآة، فكيف تخبرني بأن لديك يدين وقدمين ورأس؟! صِفْ لي نفسك أكثر، لون شعرك مثلًا؟
- آدم: بُنِّيّ.
- السجين: لقد قلت أنَّك هنا منذ فترة طويلة، إذن قد استحال اللون البُنِّيُّ الجميل إلى الأبيض، كُلَّما مَرَّت

t.me/qurssan

الأيام نقصت الحياة فيك، نحن نتحدث منذ عشر دقائق، لقد كبرنا عشر دقائق كاملة.

- آدم: الأيام تمشي وأنا واقفٌ هنا، لا أعتقد أبدًا أنَّني كبرتُ في السنّ.
- السجين: وقوفك لن يُرْبِك الوقت أو يوقفه.
- آدم: نعم، تمامًا، إذن يمكنك القول أنَّني هنا منذ فترة قصيرة، ولا يزال شعري بُنِّيًا على حاله.
- السجين: هناك أناس يتحوَّل شعرهم إلى الأبيض دون أن تمرَّ عليهم فترات زمنيَّة طويلة، لا أنكر أنهم فئة قليلة، لكن هذا لا يمنع أن تكون واحدًا منهم.
- آدم: لا، شعري بُنِّيٌّ.
- السجين: لكنَّني واثق من أنه أبيض.
- آدم: لا أتخيَّل نفسي بشعر أبيض!
- السجين: وأنا أيضًا لا أتخيَّل نفسي بشعر بني!
- آدم: هل لديك مرآة لنتأكد؟
- السجين: للأسف ليس لديّ مرآة.
- آدم: لا بُدَّ من مرآة، لا يمكنني أن أصدق أنه أبيض لأنَّك تدعي ذلك.
- السجين: وأنا أيضًا لا أصدق أنك تملك يدين

t.me/qurssan

وقدمين ورأسًا.

* * *

t.me/qurssan

قالت (فَتْحِيَّة):

- لن أتحمل الوضع أكثر من ذلك!

وتساءلت بفلسفة غير معتادة:

- أَلَا يحِقُّ للحقيقة أن تنتصر ولو لمرة واحدة على الأكذوبة؟!

والأكذوبة تَطِنُّ كذباب المكتب الذي يخترق صاعق الناموس دون أن يموت. في البداية كانت تتحدَّث الزنَّات عن إعجاب المدير صاحب المصنع بتلك "التخينة "، دون أن يُنكِروا أنَّ لها وجهًا جميلًا، لكنه منفوخ بصورة مستمرة وسط ملامح غائصة، كانت وقتها فتاة عشرينيَّة.

- هل بعيونهم مرض؟!

تساءلوا جميعًا في الوقت ذاته وبنغمة واحدة، وتوصلوا جميعًا في الوقت ذاته، أَلَا يمكن لرجل كهذا أن يخطئ في جمال امرأة، وبنغمة واحدة صارت تمتد إليها الأيدي وسط حركاتها المتثاقلة، مرَّة لحمل الملفات عنها، ومرَّة أخرى لإلقاء التحيَّة مع ابتسامة واسعة، أمَّا العمال الذين لم ينعموا بالتواصل المباشر؛ كانوا يكتفون بالتفتيش في أردافها عن مواضع الجمال. تحسُّ

t.me/qurssan

(فَتْحِيَّة) بنظراتهم، فتشعر أنها جميلة لأول مرة لتُرَدِّد أن الجميلات هُنَّ البدينات. شهور قليلة وتقدَّم الشاب الذي صار زوجها لخطبتها، القصة أعجبته فحين يُقال أنَّه تزوَّج البنت التي تُعجِب المدير، والتي قبلت به دون غيره؛ ليشعر أنه رجل بحق، ربَّما للمرة الأولى! وبالفعل قَبِلَت به (فَتْحِيَّة) ليَهْنَأ بزهو يُرِيح قلبه.

- (فَتْحِيَّة) ست بجد، وأكيد أمه دعياله.

تبتسم في خجل ويُصدِّق زوجها، ويشعر أن الحظ ابتسم له، فهي حامل بعد شهر واحد من زواجهما، لتخبر الجميع عن فحولته المؤَكَّدة بانتفاخ بطنها وترهُّل جسدها، أصواتهم تعلو بصورة أفضل ممَّا توقَّعت، لكنَّ الأمر لم يَدُمْ طويلًا؛ انقلب كل شيء على رأسها؛ في اليوم الذي صدر فيه قرار بنقل زوجها إلى فرع آخر، وقتها جُنُّوا جميعًا، وبَاءٌ تناقلته ألسنتهم لِيَنْصَبَّ فوقها:

- المدير على علاقة بفَتْحِيَّة، وقد أزاح زوجها المسكين عن طريقه، كُلَّما كان مزاجه جيِّدًا يطلب العاهرة، إنها ليست جميلة على الإطلاق، هي بدينة، والمدير يحب البدينات! هذا كل ما في الأمر! (فَتْحِيَّة) قبيحة للغاية

t.me/qurssan

وعاهرة.

شعر زوجها حين استلم قرار النقل بالخَيْبَة، لكنَّ الهزيمة أسعدته بصورة أخرى، فهي تحمل معها برهانًا بأَنَّ المدير يموت غيظًا من رجولته! ويُجَنُّ من قدرته على الفوز بفَتْحِيَّة الجميلة التي لا مثيل لها! لم يسمع زوجها ما سمعته (فَتْحِيَّة) بعد ذلك، وما تسمعه طِيلَة عشرين عامًا، فبينما كانت (فَتْحِيَّة) تَرْقَبُ همسات الموظَّفين؛ كان زوجها يتأمَّل جمالها المترهِّل، ويُمَصْمِصُ شفتيه من الإعجاب!

قالت:

- لن أتحمَّل الوضع أكثر من ذلك!

واستطردت بفلسفة غير معتادة:

- الزمن وحده قادر على جعل الأكذوبة حقيقة، والحقيقة أكذوبة.

والزمن في صالحها الآن، فما تتناقله الألسن عن فتاة عشرينيَّة لا يصح على امرأة تسير نحو منتصف الأربعينات بخُطى ثقيلة؛ مُحَمَّلَة بآلام المفاصل ومرض السكري والضغط، لا بُدَّ من وضع حَدٍّ لتلك المهزلة. منذ ثلاثة أيام وهي تروح وتجيء

t.me/qurssan

بين المكاتب والحجرات، لتمسك بأي شخص يخدش سيرتها، في البداية كان يتعجَّب الموظَّفون من طريقتها البوليسيَّة في اقتحام الحجرات دون استئذان، لكنَّ أحدًا لم يسألها عمَّا تريد، حتى لا تنفجر فيهم، واكتفوا بالغمزات فيما بينهم، وبينما تأخذ (فَتْحِيَّة) جولتها التفتيشيَّة؛ سمعت اسمها يَتَرَدَّد والصوت يبدو قريبًا، اقتحمت عِدَّة حجرات بلا فائدة، الصوت يزداد في اتجاه حجرتها، كيف يمكن لنُهَى أن تفعل ذلك؟! حَرِصَتْ على جعل خطواتها غير مسموعة، لكنَّها فوجئت بفتاة لا تعرفها قد تَجَرَّأَتْ وجلست إلى مكتبها! وبجوارها مدام (عزيزة) صديقتها المقرَّبة، لا يجرؤ أحد على مواجهة البالونة الغاضبة المنفوخة، ستنفجر بالطبع من أبسط شكَّة دبوس. اقتربت (فَتْحِيَّة) ببطء، لتتمكَّن من سماع ما يُقال. قالت الفتاة بصوت منخفض إنَّ المدير يحبُّها وأنه قد تقدَّم لخطبتها! لم تتمالك (فَتْحِيَّة) نفسها، ودفعها الفضول إلى الضغط على كتف الفتاة التي التفتت إليها، كانت صورة طبق الأصل منها! إنَّها هي! لكنَّها أصغر منها بكثير؛ فتاة عشرينيَّة! نظرت الفتاة إلى (فَتْحِيَّة) بامتعاض، وعادت إلى حديثها، لتبدو (فَتْحِيَّة) شبحًا غير مرئي لهما، سألتها (عزيزة):

– يعني أنتِ متأكِّدة يا (فَتْحِيَّة) إنه بيحبك؟! ده بيه!

t.me/qurssan

هزت الفتاة رأسها:

- طبعا متأكِّدة، المواضيع دي ما فيهاش هزار.

لم تستطع (فَتْحِيَّة) أن تصمت، زعقت فيهما:

- لأ طبعًا، ده ماكانش يعرفني أصلًا، ولا عمره هيبص لواحدة زيّي، كان لازم أقول إنه بيحبني، كان لازم يشوفوني بشكل مختلف!

ربتت الفتاة على كتف (فَتْحِيَّة) بسخرية بعد أن قامت عن كرسيِّها لتفسح لها المكان، وقبل أن تتبخَّر، انحنت تهمس في أذن (فَتْحِيَّة)، وهي تضحك بخبث وغنج:

- (فَتْحِيَّة) قبيحة للغاية وعاهرة!

* * *

t.me/qurssan

شهور مرَّت و(نُهَى) تُبَدِّل الأطباء الواحد تلو الآخر دون جدوى! فشعرها ما زال يتساقط! لم يبقَ فيه شيءٌ! في كل مرةٍ تَوَدُّ أن تسأل هل هناك أمل حقيقي؟ أَمْ أنه يعطيها الروشتَّة لأنها ما زالت تطلب العلاج فحسب؟! شعيرات قليلة حريريَّة داكنة تلمع داخل صحراء عَطْشَى، لكنَّها ليست صحراء، فكل هذه الكريمات التي تضعها تجعلها طينيَّة لَزِجَة، وتُزِيدُها سوءًا. كانت تعرف الحقيقة كاملة، لم تَعُدْ تحتاج إلى الأسئلة، طبقات من الصمت تراكمت بينها وبين الطبيب، الأطباء يردِّدُون الكلمات نفسها في كل زيارة، مزَّقت روشتته وانصرفت وسط ذهوله، لماذا لم يخبرها بابتسامة واسعة أن حالتها لا أمل فيها؟! خلعت الطرحة الصغيرة التي ترتديها في البيت، بعد أن قَرَّرَت أن تجلس بصلعتها الجديدة اللامعة وسط ذهول أبيها وأمِّها، قطعت (نُهَى) ذهولهم وبدأت تتحدَّث عن المصنع، لكنَّها لم تتلقَّ جوابًا، شعرت بقوَّتها التي لم تشعر بها من قبل! فكما للجمال سطوة؛ للقبح سطوة أخرى أيضًا، امتصَّت الضعف الذي يقتل أباها وأمها، والذي يمكن بسهولة أن تلحظه في دموعهم الحبيسة، مكَثَتْ إلى ترابيزة السفرة تَكِيلُ لهما النظرات الكاشفة لضعفهما، وأبوها يهرب طوال الوقت من النظر لنسخته الجديدة، لم يستطع أن يكمل طعامه، وضع

t.me/qurssan

بعض الأموال على الترابيزة، وهرع إلى حجرته ليحبس نفسه بداخلها، لا يخرج إلَّا للضرورة، بينما تتحرَّك (نُهَى) بكامل حرِّيَّتها، كفراشة أدركت مؤخَّرًا أن للظلام قوَّة لا تقلُّ عن قوة الضوء، لن تظلَّ حبيسة النور الذي يحرقها كُلَّما اقتربت، لظلام وجهها راحةٌ شَعَرَتْهَا حين كفَّت البحث عن الضوء ومطاردته، ما أجمل الظلام الذي يُخَيِّم على النفس! ما أجمل جسدها القبيح الذي يسجنها داخله.

ثلاثة أيام كانت كافية ليبدأ أبوها نوبات الكحة، حيث ارتفعت حرارة جسده، ثم ارتفع سكر الدم، نظرات قليلة لعيني أبيها كانت كفيلة لتعرف السبب، لكنَّ الطبيب لا يعرف، هي وحدها تعرف أن أباها لن يحتمل البقاء داخل غرفته طويلًا، قليلون هم من يستطيعون تحمُّل الوحدة، البؤساء وحيدون كالأنبياء، لكنها تعرف جيِّدًا أن الأنبياء جميعهم رجال، نظرت إلى صلعتها الجديدة، لم تعد تفرق كثيرًا عنهم!

نسجت طقوس عزلتها بترتيب حجرتها والمساء، أنهت الترتيبات الأوَّليَّة، فاكتشفت أن حجرتها واسعة، وأنها لم تَنْتَبِه من قبل، التصقت الطرحة برأسها منذ ذلك الوقت، لا تخلعها وهي تسير في أنحاء البيت، اتجهت نحو أبيها الراقد في سريره،

t.me/qurssan

دَعَتْهُ للخروج والمكوث أمام التلفاز، استجاب لها سريعًا وهو يرمق طرحتها بنظرة مستريحة، ظَلَّا يشاهدان المسلسل الذي لا تعرف أحداثه، البطلة فائقة الجمال، يحبُّها رجل وسيم، له شارب خفيف يزيده رجولة، لماذا الجميلات يَطْلُلْنَ عليها من كل مكان؟! حتى داخل البيت، تتبختر أمُّها الجميلة أمامها طوال الوقت! انسحبت نحو غرفتها حيث لا وجود للجميلات في أركانها، لم تَعُدْ تخرج منها سوى لتناول الطعام، ورغم أنها تحبس نفسها داخلها طوال اليوم، لكنَّها المكان الوحيد الذي تتمتَّع فيه بالراحة والهدوء، تلبس ما تريد تاركة رأسها عارية، داخلها وحدها تستطيع التمتُّع بقُبْحِها في صمت واستسلام.

* * *

t.me/qurssan

أَفَقْتُ على جسدي النحيل داخل حجرة بيضاء واسعة، خالية تمامًا. أين ذهبت الزنزانة؟! يقلقني هذا البراح الأبيض المخيف، لقد اعتدت اللون الرمادي، على الأقل لا يُعَكّر مزاج عيني المتعَبَة، الأبيض أخو الأسود ونقيضه، لكنَّه يترك نفس الأثر على صدري المنْهَك، أنا الشيء الرمادي الوحيد هنا، في نهاية الحجرة أُكْرَة باب ذهبيَّة تلمع في هذا البياض، ركضت نحوها، لكنَّي تعثَّرت في خطواتي التي نسيت المشي، أمسكت بها في النهاية: حمَّام أنيق! هل أنا في الجنة؟! أجابني الصدى: نعم، ضحكت! هل قتلوني بالأسفل؟! كنت أعلم أن التُّهَم وصلت إلى الرقم عشرة، فهم يتقنون عملهم ولا يتركون قضيَّة تُسجَّل ضد مجهول! من المؤكَّد أن هناك تُهْمَة قد أَوْدَت برقبتي، تحسَّست الأشياء الراقدة في صمت بينما تقفز أشياء في صدري، خلعت ثيابي سريعًا وجلست على "التواليت"، كيف أتيت إلى الجنة دون موت؟! اختلج صوت بداخلي:

- لا بُدَّ أنَّهم أرسلوك إلى هنا.

أراحتني الإجابة، لكنَّ الجلوس بتلك الطريقة أمر مزعج، ملامسة جسم بلاستيكي لفخذي يصيبني بقشعريرة تحُول بيني وبين أن أفعل، وها أنا أنتظر أن يهبط شيء من

t.me/qurssan

أسفل مني، شيء رمادي نحيف مثلي، يا للسخف! أين الجردل؟! سأطلب من الملائكة جردلًا. قفزت سريعًا من تلك الجلسة المرهقة، كانت هناك مرآة كبيرة. لا بُدَّ أن وجهي اختلف عن ذي قبل. نظرت بشغف، أَوَدُّ معرفة لون شعري. لكنَّ المرآة كانت فارغة مِنِّي! مصقولة وناعمة، لكنَّها لا تعكس صورتي! اقتربت منها أكثر وأنا أكتم غيظي، لاحظت انعكاس عنكبوت صغير، لامست وجوده الذي يلغي وجودي، فَعَصْتُ انعكاسه على السطح المصقول بكلتا يديَّ، لكنه لم يتأثَّر بفعصاتي المغتاظة. لا بُدَّ أن أقتله؛ بحثت خلفي في زوايا الحمام دون أثر، واقف فقط داخل المرآة كأنَّه محبوس في ثناياها. لو أنَّني في زنزانتي لوجدته بسهولة، الزنزانة ضيِّقة وسيكون البحث أسهل، كم أكره تلك الغرفة، إنَّها بلا لون ولا طعم، بيضاء مقرفة بلا جردل! كما أنَّني لا أرى نفسي بداخلها، ولا أجد ذلك العنكبوت الذي يُلغي وجودي ويتحداني، من المؤكَّد أن الجنة أفضل من ذلك بكثير، إنهم يزيدون عذابي بتلك الغرفة الواسعة، لقد اعتدت الزنزانة/البيت، أكرهها لكنَّني أحبُّها أيضًا، فلا سبيل للعيش دونها، لو غفلت قليلًا ربما أصحو على زنزانتي الجميلة الرماديَّة، تمدَّدت وأغمضت عينيَّ، لكنَّ ضربات قلبي كانت تصنع ضوضاء هائلة بجوار أذني، لا بُدَّ أنَّني أحلم!

t.me/qurssan

لا بُدَّ أنني أحلم! ظَلَلْتُ أُرَدِّدها حتى هلكت وسقطت في غفوة عميقة.

أَفَقْتُ، الزنزانة هنا، ضحكتُ من الفرح، قفزتُ في أركانها الضيِّقة، تحسَّستُ الجردل، الحنفيَّة، السرير القذر، كل شيء كما هو لم يتغيَّر، كل هذه الأشياء ملكي وحدي، لن يفصلني عنها غير الموت، لم تَعُدْ هناك جدوى من الأسئلة: لماذا؟ مَن؟ متى؟ هناك أشياء تحدث بلا سبب، قدري أن أبقى في السجن! هل الجنة أجمل من تلك الزنزانة؟!

بحثت عن العنكبوت حتى وجدته، وجوده يصنع حالة من الفوضى، لقد اقتحم زنزانتي دون استئذان كأنَّ البيت بيته، لا يمكن أن يجتمع ذكران في مكان واحد! إنها قاعدة ليس فيها أدنى شكٍّ! لن أموت بين أرجل عنكبوت قذر، وخيوطٍ لزجة، وأنياب يغرسها في صدري فتذيب لحمي، ثم يقوم بامتصاص هذا المخفوق الشهي مستمتعًا ببيت وفريسة، لن أُمَكِّنه من ذلك بسهولة، العناكب كائنات قذرة؛ يقتلون بعضهم بعضًا بدم بارد، اكتشفت أنَّني أعرفهم جيِّدًا، امتعض قلبي وارتعشت يداي، لا بُدَّ من توخِّي الحذر والاستعداد!

* * *

t.me/qurssan

"مؤخرة مكتظَّة تحمل جسدًا ثقيلًا، تحرَّكت للأمام قليلًا، فبدا "أندرها" الأبيض مُتَّسِخًا. اشتممت رائحة جسدها المتعرِّق الحار، فأصابني دوار، بدينة شهيَّة تجذبني نحوها أنا المسكين، أُصْغِي إلى جسدي الذي يبكي من جوع قاتل، أنا جائع ويرهقني اللحم الطري الأبيض، تقدَّمتُ راكعًا عند قدميها الكبيرتين، أنتِ لي أيَّتُها الحلوة الكريهة، أشتاق إليكِ حَدَّ الموت!"

- عنكبوت!

لم ينتبه أحد فمدام (فَتْحِيَّة) تمارس عادتها الطبيعيَّة، في البداية كانت تُبَرِّر السبب موضِّحة أنها كائنات قذرة، كما أنها تخشى أن يزحف أحدها على ساقها، لم يفكر أحد بنفس طريقتها، فالكل يعرف أن مبنى الإدارة قديم، وأرضيَّته خشبيَّة مِمَّا يزيد عدد العناكب به. لم تنتبه (نُهَى) لصرختها التي أطلقتها منذ قليل إلَّا حين وجدته أمامها على المكتب، كان يتحرَّك سريعًا على إحدى الصفحات البيضاء، استطاع الفِرَار من شبشب (فَتْحِيَّة) لحسن حظه، توقَّف أمام عَيْنَي (نُهَى) التي تحوطه، عيناه صغيرتان وفَزِعَتَان، تهمس في أذنيها وتنادي على الأنثى الخلاص، حوَّاء المبتدأ؛ فليس قبلها شيء! من

t.me/qurssan

الممكن ألَّا يكون إذا تحركت أصابعها قليلًا، أن يصير فجأة ذَرَّة سوداء في الغبار، وما الوجود سوى أنثى سوداء ساحرة، يندَسُّ بين أصابعها فيشم رائحتها البكر الطازجة المدفونة تحت طبقات من الخوف، تحس بالشعر الذي يكسو أطرافه، يُذَكِّرُها برجل مَكْسُوٍّ بشعر خفيف ناعم، ذلك الشعر الذي تنتبه له كثيرًا الآن، مَرَّة على هيئة شارب رقيق يحرس شفتين مكتنزتين مُشْرَبَتَيْن بحمرة داكنة، ومرة أخرى ذَقْن ثقيلة بين ملامح صارمة تكاد تزعق فيها، لكنَّها مع ذلك تتمتَّع برجولة أخَّاذة. يقشعِّر جسدها؛ فنظرته تحترم أنوثتها وتعترف بها، كمن يُفسِح الطريق لامرأة جميلة كي تمرَّ أمامه، ثم يُهرولِ ليفتح لها باب السيارة. يتوسَّل إليها، إلى (نُهَى) المرأة، ويدرك أنها ستساعده فقط لأنه رجل، نظرة واحدة، ابتسم لها، وحمل عنها الملفات، لأول مرة يرمقها رجل بتلك النظرة ويقدِّم لها تلك الخدمات، سألت ما الفرق بين ذَكَرِ العنكبوت وأنثاه؟! قد يكون الماثل أمامها مجرَّد أنثى تتفحَّصها لتخبرها كم هي تعيسة وقبيحة وصلعاء! لكن نظرته تلتهم جسدها؛ نظرته نظرة عاشق، هو رجل، كامل الرجولة! جسده أسود مثلها لكنَّ سواده مختلف، منقرش أو رمادي، شعره الخفيف يوقِد جسدها بحرارة تتمنَّى المزيد منها، تتفحَّصه وترمق خوفه، خائف من قوَّتها كقِدِّيسة تكتب قدره

t.me/qurssan

بين يديها، وهي (نُهَى) المنتهى، ومنتهى وجوده أَلَّا يتركها وحيدة الليلة، أن يقدِّم جسده قربانًا لخلاصه الأبديّ، التقت أعينهما في بريق خافت مُفْعَم بالموت والرغبة، لا يملك سوى الركوع أمامها كرجل يُعلِن استسلامه أمام امرأة جامحة تنادي عليه بغنج: تعالَ إليَّ! انطلق صوت (فَتْحِيَّة) عاليًا:

- ما شفتهوش يا (نُهَى) هرب مني ابن الكلب!

انكمش بين أصابعها، ردَّدَت (نُهَى) بصوت خفيض:

- لا، لو شفته هضربه!

لامست أصابعها الرفيعة جسده الخشن فَسَرَتْ بداخلها رعشة، لأول مرة لا تخشى الناس، بل تخشى نفسها؛ لو أنها قتلته بأصابعها لَانْتَهَى الأمر، وعاد كل شيء كما كان، لكنَّ نظرته تجعل عودة الأمور إلى سابق عهدها مستحيلًا، الفرصة قد لا تأتي ثانية، وتخشى أن تضيِّعها، تخشى أن ترتكب حماقة، وتخشى أيضًا أن تُفَوِّت اللحظة، اللحظة نفسها ترعبها، اللحظة التي اعتلى فيها المكتب غير مكترث للزمن، منتصف الثلاثينيَّات وقت مرعب، كما أن اللحظة القادمة مخيفة! فكل تصرُّفاتها محسوبة، لم يعد هناك وقت لارتكاب مزيد من الأخطاء، تحرَّكت (فَتْحِيَّة) تجول المكتب في قلق، نظرت (نُهَى)

t.me/qurssan

بتحدٍّ إلى مديرتها المجنونة وهي تردِّد:

- النساء يُفْسِدْنَ كل شيء!

اكتشفت أنها تبكي من فرط دهشتها؛ فبكت أكثر: لماذا كنت غير مرئيَّة قبل تلك اللحظة؟! فتحت له كُمَّ بلوزتها ليدلف داخلها وهي تنادي بغنج تعالَ إليَّ!

في المساء أراحت (نُهَى) رأسها على السرير بعد أن خلعت ثيابها كاملة لِتَتَأَكَّد من عدم وجوده، اكتفت باللحظات القليلة التي حَظِيَت بها بين يديه، وقفت عارية أمام المرآة، تحسَّست بطنها المترهِلَّة وهي تلعن الأطباء، ثم صعدت بيدها إلى الليمونتين المنكمشتين، جسدها يعج بالشعر الأسود الناعم، لماذا لم يُصِبْه الصلع هو الآخر؟! ليُوَفِّرَ عليها بعض المشَقَّة، لَوَتْ شفتيها وارتدت ثيابها، وهي تبتعد قدر المستطاع عن المرآة.

لم تنم سوى ساعتين، واستيقظت فَزِعَة، حركات سريعة تَدُقُّ جدران جسدها كناقوس لا يتوقَّف، كادت أن تَهُمَّ لتوقف الاجتياح، لكنَّها تجمَّدت مكانها، فجسدها صحراء، وطريقه بعيد، يغزل خيوطه البيضاء قمرًا، يكشف الغيمات عن جسدها غيمة غيمة؛ فيصبح قمره نحاسيًّا باهتًا، يصرعه سواد

t.me/qurssan

الليل القاسي. تفيق، تتجمَّد، تتعرَّق، تسأل: هل لا يزال موجودًا؟! تفكر، يلجأ إلى حِيلَة أخرى، فلا وقت للتفكير! هناك أمور لا تحتاج للعقل، يطرق الأبواب، يفتح لها بابًا سحريًّا على عالم خفي؛ لا تعرف عنه شيئًا. يُرِيها في صحراء عالمها كيف تُنْبِتُ زهرة في جدار مُعْتم، فيأسرها بعالمه الخرافي مترامي المدى، كل ما في الليل يسحرها؛ شعره الخفيف الذي يكسو جسده يصيبها بقشعريرة وفراغ، فراغ يَوَدُّ لو يمتلِئ بخيوطه اللَّزِجَة التي لها رائحة مميَّزة، رائحة تعجبها بشكل خاص، يمطر صحراءَها بغيثه، تشمُّ عبق جسدها الساحر، فيعتلي ليمونتيها الصابحتين، ويجزُّ عليهما فَتَنِزًّا عصيرًا باهتًا، طعمه لاذع حلو، يدغدغمها أكثر بين أسنانه، وهو يزحف على جسدها المفعم برائحة الليمون، حامضه يُشعِل جسدها النحيل؛ فتضحك دون أن تُصْدِر صوتًا، وترتفع قهقهات جسدها الذي يتصلَّب ويرتخي في سيمفونيَّة عذبة، يغلبها بضعفه وجسده المنقرش الضئيل، تتقلَّب خفيفة وسط حركاته، وتُحَوِّمُ في الظلام فراشةً سوداء يملكها ذَكَرٌ أسود قبيح، له عقل رجل عارف ببواطن الأمور. الأمر ليس مصادفة، تصرخ بالنشوة فَلِلظَّلام طعم حلو، يتقلَّب على الرمال الساخنة، يعلو ويهبط في الأودية والكثبان عَلَّهُ يجد حياة، نبتة واحدة وقطرة ماء،

t.me/qurssan

تتردَّدُ! تَتَمَلَّصُ! تفكِّرُ! لا تفكِّرُ! تنغمس! تصرخ! ترتجف! تطير لِتَحْتَلَّ مكانًا سماويًّا يليق بها، فالليل لا يفترش سوى سماء سوداء صلبة، ووسط خيوطه البيضاء اللامعة يبدو سواد الليل داخل جسدها مختلفًا كأنَّه منقرش أو رمادي!

راحت في نوم طال ساعة، كانت كالواقع تحت تأثير مخدِّر، لم تشعر بنفسها وهي تغيب عن الوعي في نوم لذيذ، بعدها جلست تفكِّرُ في كل ما حدث، لكنَّها لم تفكِّرُ طويلًا. فتحت شبَّاكها وجلست تشمُّ بعض الهواء النقي في عتمة الليل، والليل جسد أسود نحيل يَتُوق إلى حليبها المخبَّإ، يكشف ليمونتيها ويسمح لهما بالنظر للخارج وتَنَفُّسِ بعض الهواء، فيكسوهما الندى، وهما ينقلان للشارع بأكمله رائحة ليمون منعشة، تحسَّست رقبتها في كسل، ودَنْدَنَتْ بلحن قديم وسط عيون تَرْقُبُها في الظلام.

* * *

t.me/qurssan

اقتربت (فَتْحِيَّة) تلك المرَّة لتُمْعِنَ النظر في بوابات المصنع، كانت تعلم أن الحشد خلفها والصدى ينزع الثياب عن جسدها ويصرخ في أذنيها:

- عاهرة! عاهرة!

لم ترتجف هذه المرَّة من عُرْيِها الناصع، فالبوابات بهيئتها الجديدة تأخذ بصرها، أسياخها الحديدية تشق صدر السماء الرماديَّة. الرمادي لون محايد وصامت ولا يَشِي بشيء، فالمطر لن يهبط الليلة، التصقت بالبوابات بحركة لا إراديَّة في مواجهة الحشد الغاضب، لكن الحشد تباطأ فجأة واستدار بعد أن اطمأنَّ إلى أنها في قبضة الأسوار، أَمْعَنَت النظر، لم تكن حديديَّة كما ظنَّت في بادئ الأمر، فالأسياخ بشريَّة؛ لها أذرع وعيون وألسن، ألسن طويلة تَلْعَقُها كحَيَّات تستمتع بفريستها المغفَّلة العجوز، تتثاءب بجوار (فَتْحِيَّة) فيزداد لسانها طولًا والتواء، ويزداد لعابها المسمَّم النتن في الالتصاق بوجهها ونهديها، شهق جسدها المبلَّل العاري لتستفيق مجدَّدًا على وجه زوجها البائس، كان يلتقط الأنفاس التي تهرب منه بعد أن ابتلع لسانه للداخل واتَّكَأ على جانبه لِيَغُطَّ في نوم عميق، زَمَّتْ شفتيها وهي تمسح وجهها المغسول بلعابه، وتحسَّست سريرها

t.me/qurssan

الحديدي وردَّدت:

- كابوس وانزاح!

لكنَّ كابوسها قد ابتدأ بالفعل منذ يومين حين فوجئت (فَتْحِيَّة) بزوجها واقفًا مع زملاء لها في الإدارة على ناصية شارعهم، رُبَّما قابلهم صدفة، هم أيضًا أصدقاء قدامى له قبل أن يتمَّ نقله إلى الفرع الآخر للمصنع، رَمَقَتْهُم بطرف عينها وهي تودُّ لو تعرف ماذا يخبرونه؟! لا بُدَّ أنَّهم يتحدَّثون عنها وعن المدير:

- (فَتْحِيَّة) زوجتك على علاقة بالمدير، وقد أزاحك عن طريقه لِيَنْعَمَا بما يحرمهما وجودُك، زوجتك المصون عاهرة!

شعرت بكلماتهم تحاصرها، وتُضيِّق الخناق عليها وتحصرها داخل شارعهم الضيِّق الملتوي، كل مَنْ في الشارع يشير إليها؛ يتحدَّثون داخل جحورهم عنها، ويردِّدون خلف الصدى، حتى الذين لا يعرفونها يستجيبون له، فمَنْ يملك أن يقول للصدى لا؟! هَرْوَلَتْ وسط غمزاتهم حتى وصلت إلى شَقَّتِها، أغلقت الشبابيك لتمنع الهواء من نقل طنَّاتهم المزعجة، أتى زوجها بوجه مُنْقَبِض، لكنَّها حرصت ألَّا يبدو عليها

t.me/qurssan

شيء، وضعت الطعام كعادتها، تناول لقمتين وترك المائدة دون أن يلتفت لكلماتها:

- ما أكلتش يعني؟!

بدا صامتًا اليوم، فكَّرت أن تسأله عمَّا تبادلوه من حديث، لكنَّها تراجعت، فلو أخبروه بقصَّتها، سيبدو سؤالها مؤكَّدًا لهواجسه، اكتفت بِتَنْهِيدَة صامتة، وهي ترى يده تمتد داخل شنطتها بحثًا عن مُرَتِّبِها كعادته آخر كل شهر، هَمَّت من رقدتها واستأذنته أن تَتَمَشَّى قليلًا، فقد أوصاها دكتور الرجيم بنصف ساعة مشيًا على الأقل، لكنَّه ردَّ بحنق:

- أنا عايزك كده ماتخسِّيش.
- مش عشان اخِسّ، الرياضة مهمة للجسم.

ارتدت ثيابها مُتَفَادِيَةً نظراته التي تَشُقُّ وجهها، تحتاج أن تجلس وَحْدَها لتُفَكِّر في تلك المصيبة التي وقعت بالفعل، فمِن المؤكَّد أنَّه يعرف الآن، ولا بُدَّ أن تجد طريقة للخروج من هذا المأزق، ما الذي يخطِّط له؟ سيقتلها ويمزق جسدها ويلقي به في القمامة؟! نظرت إلى أكوام القمامة المُتَكَوِّمَة حولها في كل مكان في الشارع، سَدَّت أنفها بأصابعها الغليظة، الرائحة لا تُطَاق، وستصبح أسوأ بكثير إذا ما انضم إليهم جسدها

t.me/qurssan

الضخم المترهِّل، أَمْ أن زملاءها تحَرَّجُوا من إخباره بأمر كهذا؛ فمن الصعب أن تقابل رجلًا في الشارع فتخبره ببساطة أن زوجته عاهرة! أتعبها المشي كثيرًا، لكنَّها تحاملت على نفسها حتى عادت إلى البيت، عندما انفتح باب الشقة سمعت ضحكات عالية تخترق غطاء الصمت، ضحكات أنثويَّة خليعة مصدرها حجرة نومها، فتحت الباب دون انتظار، فإذا بزوجها عارٍ وبين يديه فتاة تضحك، لم تنظر إلى وجهها، فقط تراجعت للخلف، وأغلقت الباب عليهما وهي تسمعه يَسُبُّها وسط ضحكاته! لَوَتْ شفتيها، تلك طريقته كُلَّما أصابه شَبَقٌ، لم تَعُدْ قدماها قادرتين على حملها، أَلْقَتْ بجسدها الثقيل على الكنبة، وقامت بتشغيل التلفاز بصوت مرتفع حتى لا تسمع شيئًا من ضحكاتهما وهي تدمدم:

- الآن صار يعرف!

* * *

t.me/qurssan

العنكبوت يرقص، والضابط خلفه يلتهم سجائره ليملأ القفص عبقًا خانقًا، و(آدم) بينهما عارٍ من كل شيء إلَّا من خيوط الباشا العطنة، لم يكن مربوطًا تلك المرة، كان مستسلمًا، قال لنفسه:

- ماذا سيحدث لو قاومت؟!

أَخْمَدَ النار المشتعلة بداخله بتأمُّل ذبابة تصرخ داخل كفن عنكبوتي أبيض! منذ أيام و(آدم) يحاول قتل عنكبوته المراوغ، لكنَّه فشل تمامًا، قال:

- ما زِلْتُ حيًّا، لم يبادر العنكبوت بهجماته بعد، لم أفشل بصورة كاملة.

السجائر المضيئة مصابيح تكشف له مكان عَدُوِّه وتفاصيله الدقيقة، عنكبوت أسود له ثمانِ أرجل. لم يَفْقِدْ إحداها في معركة من قبل مِمَّا يدل أنه انتصر فيها جميعًا، أو على الأقل نجا بنفسه دون خسائر. أمسك (آدَم) بقطعة من الخيوط قبل أن تنطفئ من أثر الغبار، مَلْمَسُه ناعم، لكنَّه يُوَلِّد لديه شعورًا مَقِيتًا، وخصوصًا حين يعلو طنين الذبابة المُعَدَّة لموتها، لا يبدو منها شيء غير صوتها المبحوح واستغاثاتها، أصابه الحنق، فهو يكره تلك الزنَّات التي يسمعها كثيرًا بعد أن

t.me/qurssan

يتغوَّط، فالجردل لا يتغيَّر إلَّا بعد يومين، لكنه تلك المرة شعر بالغضب من أجلها.

الجو البارد يداعب جسده العاري برعشة خفيفة؛ رعشة تُنْبِئ بقدوم الموت المشتعل بجسده والذبابة، فتمرض الذكريات المنسيَّة معه بالحمى، يسمع صوت شيخه:

- إنت عارف يعني إيه (آدَم) يا وَلَه؟
- اسم جدي يا شيخ.
- جدك بس يا وَلَه، مش اسم سيدنا (آدَم) أبو البشر.
- معرفش، أبويا سمَّاني عشان خاطر جدي.
- أبوك حمار.
- طب هو (آدَم) ساب الجنة ليه؟
- عشان هو (آدَم)! وهو الحمار هيجيب إيه غير حمار زيُّه!

يأتيه شيخه، ويحول بينه وبين عنكبوته، ينظر لآدم بِنَهَمٍ وازدراء، يلكزه بعصاه في صدره:

- أنت سايبهم يعملوا فيك كده ليه يا حمار؟!

تنسحب روح (آدَم) ويشهق قلبه:

- ساعِدني!

t.me/qurssan

يشير الشيخ نحو شجرة بيضاء عامرة، يرتجف (آدَم) ويحدِّث نفسه:

- أنا خائف جدًا! ويقلقني اللون الأبيض!

ينهره، يدفعه، يحاول (آدَم) أن يمشي فيتعثَّر؛ يسقط، يزحف حتى يَصِلَهَا، حجرة بيضاء مغلقة بمفتاح ذهبي، تتوسَّطها شجرة بيضاء وافرة! ثمار حمراء! ثمار خضراء! يختفي خلف جزعها العريض المغروس، يصنع من أوراقها ليلًا أبيض يحجب عُرْيَه، ويزحف على جسده، فيُشْعِرَه ببعض السكينة:

- أرأيت يا شيخي؟! أنا بلا ذنب الآن؟!

يشم (آدَم) رائحة الثمار الطازجة، فيلكزه الجوع، لونه مختلف لامع، قطرات الندى تُغْرِيه، فهي تفضح سِرَّ طزاجته وميلاده القريب، يرقب الذباب الذي يتجوَّل في الأفق.

- ما أجمل الذبابات الحائرات! أَنْثُنَّ لي أيَّتها الحلوات الكريهات!

يقسمه الضابط بضربه من يده، فيصحو (آدَم) من غفلته، وينادي على شيخه في محاولة أخيرة:

- فين أبويا وأمي؟!

t.me/qurssan

يلعقه شيخه بابتسامة ماكرة:

- يمكن مالكش!

يتحسَّس جبين (آدَم) الملتهب:

- أنت محموم وجائع، وما تراه الآن ليس أنا!

يتبخَّر شيخه ويطير، تضيق الخيوط أكثر على الذبابة و(آدم)، يشم جسده فلا يَتَحَمَّل الرائحة، معدته تنقبض من شعوره بالقرف، ويفيض قرفه حين يرى عنكبوته يمسك الذبابة بين أسنانه، والضابط يلصقه بالقضبان كي يلقي بخيوطه داخله، يقول الضابط السكران بالنشوة:

- كم أحب تلك العيون العسلية الحالمة!

ينكفئ (آدَم) على وجهه، ويسرح في أقدام عنكبوته المغطَّاة بشعر خفيف، ونظرته التي تمد جذورها داخل جسده، كم عيْنًا لديه؟ لا بُدَّ أنها أكثر من عينين؛ عشرين، ثلاثين، عيون عنكبوتيَّة محمولة على ذرَّات الهواء تفحصه، تخوض داخل جسده المثقوب، تتأمَّل ثُقْبَه وتضحك! يسأل (آدَم) نفسه: ما الفرق بين الرجل والمرأة؟! ثم يخشى أن يُفَكِّر ثانية، فقد يسمعه عنكبوته ليكشف ما يخطِّط له (آدَم) بالفعل، فيفشل كما فشل من قبل في الإطباق عليه. يفرُّ عنكبوته من بين أصابعه كشبح

t.me/qurssan

يتبخَّر في الوقت المناسب، لم يجد (آدَم) بين يديه سوى ذبابة تموت، أخذ يبحث عنه وهو يقول:

- ورقة واحدة قادرة أن تُخفِي الثقب فأعود رجلًا! ورقة شجرة واحدة تصنع المعجزات!

وجد شيئًا آخر يلمع داخل بنطال الضابط، "آدم..."! بطاقته! فَكَّرَ قليلًا، لم يفقدها في الكمين كما كان يظن! لقد كانت في جيب الباشا منذ البداية، وفي ذلك أمر حسن فقد وجدها أخيرًا! نظر إلى الذبابة في كَفِّه، فنسى كل شهامته السابقة، ليكتشف أنه لم يفكر في إنقاذها، ولم يَعْنِهِ أمرها في شيء، كل ما في الأمر أنه كان مغتاظًا من مِلْكِيَّة غريمه لها، الآن صارت مِلْكَه؛ يملك مصيرها بين يديه حتى وإن كانت تحتضر. قرَّبها من عينيه ليرى أجزاءها الصغيرة، إنه يكرهها بشدة، لم يتخيَّل أبدًا حتى تلك اللحظة مدى كراهيته لها، يكرهها وهي تحوم حول برازه، ثم تهرع لتحاول الوقوف على جفنه وشفتيه، والعجيب أيضًا أنه لا يحمل نحوها شعور الكراهية فقط، فهو يحبُّها أيضًا، يحبُّها بنفس القدر الذي يكرهها به، يحبُّها لتلك الدرجة التي يتمنَّى لو يحتفظ بها للأبد، ويلتهم عيونها وأجنحتها المرفرفة، بيده شيء ثمين للغاية، وسيخسر الكثير لو فقدها، ظَلَّت في كَفِّه مُطْبِقًا عليها؛ حتى

t.me/qurssan

انطفأت سجائر الباشا لتقبع الزنزانة في ظلام دامس، تَكَوَّم (آدَم) بجوار السرير بعد أن شعر أن غضبه قد هدأ قليلًا بعدما توصَّل لبطاقته، لكنه لم يستطع أن ينعم بنوم هادئ بسبب الهرش الذي أصابه، أخذ ينهش جلده من حين لآخر، وهو ينتظر الماء الذي لا يأتي، لَكِنَّ الماء لم يأتِ حتى الصباح، فانتابته رغبة عارمة في البصق، ابتلت الأرضيَّة بِرِيقِهِ المرّ، لم يكن هناك طعام في الطبق أمامه، بطنه تَئِنُّ من الجوع، وعطشه غير محتمل. نظر إلى الذبابة في كفه، وسمع نفسه يقول:

- **أنا جائع، ويرهقني اللحم الطري الأبيض، أنتِ لي أيَّتها الحلوة الكريهة، أشتاق إليكِ حد الموت!**

ثم رأى نفسه وهو يضعها بين أسنانه؛ يَمْتَصُّ روحها بهدوء، مستغرقًا في طعمها الشهي، أخذ يقلبها داخل فمه حتَّى يُبقِي طعمها لأطول فترة، قبل أن يبتلعها مستمتعًا بانتهاء الزنَّات المزعجة التي كانت تطارده!

* * *

t.me/qurssan

لماذا أَطْلَقَ عليَّ أبي هذا الاسم؟! (فَتْحِيَّة)! ماذا فتحت؟! لم أفتح عَكًّا يا أبي! كل ما تمكَّنْت من فتحه هو باب الحجرة لأرى زوجي وعشيقته! والمضحك أنها تشبهني كثيرًا؛ نفس جسدي الثقيل، لكنَّها ما زالت وردة مُغَطَّاة بالندى الفَتِيّ، لم يمسَسْها غبار السنوات، ولم يصبها مرض السكري بتقرُّحات في أقدامها وزغللة في العين، ما زالت ترى الأشياء دون نظارات القراءة، وتستطيع الجري رغم وزنها الثقيل، كما أن أمامها الفرصة لتصير يومًا ما رشيقة إذا ما اتَّبَعَتْ رجيمًا ليس قاسيًا، وقلبها حُرٌّ يقفز ويضحك بغنج ويداعب الهواء الذي يلتصق بجسديهما، لم يكتفِ زوجي بتلك المرَّة، بل ما رأيته في حجرتي، تكرَّر في أنحاء الشقة، في الليل أكتشف فراغ سريري البارد، أتلحَّف بالبطاطين الهادئة التي تهين مزاجي، مزاج امرأة وحيدة دون صخب في الليل، والمضحك أيضًا أنَّني أستمتع بهدوئي وأتقبَّل إهانة جسدي بنفس راضية، الزمن قادر أن يجعلني لا أرغب في شيء! تحرَّكْتُ خلف أصواتهما، حجرة الأنتريه، أيامنا الأولى معًا تَقْتَنِصُها الآن وحدك يا زوجي العزيز مع فتاة صغيرة، الماضي لم يتركنا كما كنت أظن، نحن الذين رحلنا عنه بهدوء، الصخب يطغى على صوت ضحكاتي بين يديك وأنت تقول:

t.me/qurssan

– ازرعيني برفق داخلك! برفق أم.

كم كنتُ أُدَلِّلُكَ يا طفلي الأول! الكنبة ضيِّقة والأرض براح، ورغم ذلك لم تكن تسع انبعاثك داخلي! وَدَدْتُ أن أموت فيك، وكُلَّما اقتربت من الموت لا أموت! لماذا كُنْتَ تُصِرُّ على إيقاظي؟! الصحو سيِّء جدًّا يا حبيبي، ألم يخبرك أحد بذلك من قبل؟! الآن تموت امرأة أخرى بين يديك، تسمَّرْتُ أتحسَّس التجاعيد التي غزت وجهي فجأة واستقرت فيه، رُكْبَتِي تؤلمني وتُذَكِّرُني بأنَّني لم أتناول الدواء، ماذا يفعل الدواء في جسدي؟! لماذا لم تقتلني يا حبيبي؟! تحرَّكت يدي نحو مقبض الباب، سأخبره أن المومس التي بين يديه تخدعه، ولا تتحرَّج أن تَتْبَعَ زوجته العجوز إلى مكان عملها، ولن أخبرك عمَّا يحدث هناك، فتاتُك لا تترك رجلًا يَمُرُّ أمامها إلا وتعرض عليه خدماتها، وأحيانًا تقدِّمها مجانًا لمن يطلب ومن لا يطلب! بالأمس كانت تجلس على المكتب، وترتدى الهوت شورت الذي يكشف لحمها الأبيض المترهِّل، لكنه يُعجب الجميع رغم منظره المقزِّز، حتى المدير لم يَنْجُ من خدماتها، لماذا يتآمر الجميع عليكِ يا (فَتْحِيَّة) بتلك الطريقة؟! سأتركك يا حبيبي المغفل، هذا عقابك، إنك طفل سيِّء الحظ؛ حتى المومس التي أَتَيْتَ بها إلى البيت لا تكتفي بك وحدك، ربما تكون المشكلة

t.me/qurssan

عندك منذ البداية! وضعتُ أذني على الباب أحاول أن أَتَسَمَّعَ بعض الكلمات:

- بَعْشَق أمك يا بت الكلب.
- بطَّل شتيمة بَقَا، إنت مستكتر تقولِّي بَعْشَقِك يا (فَتْحِيَّة)؟!

حين سمعت اسمي تساءلت: لماذا أسماها أبوها بهذا الاسم السخيف؟! لكنِّي لم أتردَّد في إزعاج اللحظة بينهما، نظرت في وجه الفتاة التي نظرت إليَّ بخبث، كنت أعلم أنها نسخة مني، ولم أتعجَّب أن يكون لها نفس الاسم أيضًا.

- تعالى إليَّ يا حبيبي؛ سأخبرك عمَّا تفعله (فتحية) بالضبط!

* * *

t.me/qurssan

- آدم: أين كنت؟!
- السجين: أفكر، أَتَعْرِفُ أن الإنسان يحمل أمانة الله، إنه خليفته على تلك الأرض، هل تَظُنُّ أن الخليفة أقل من المخلوف؟! ولا أنكر أنه عبده.
- آدم: اسمي آدم، ألَا يكفيك ذلك؟!
- السجين: المؤَكَّد والمنطقي بالنسبة لي أنَّنا من فصيلة واحدة، فنحن نتحدَّث لغة واحدة لم يَثْبُتْ إلى الآن أنها لغة البشر، ألَا تشعر أن لغتنا جميلة ومميَّزة. كما أن لنا نفس المفردات، إنَّنا واحد، ألا تشعر؟!
- آدم: المؤَكَّد بالنسبة لي أنَّني إنسان، ما يتملَّكُكَ من شكٍّ يخصُّك وحدك، لا شأن لي بك.
- السجين: تُدْعَى آدم، لقد أسماك أبوك تيمُّنًا بسيدنا آدم.
- آدم: لا، من أجل إرضاء جدِّي.
- السجين: وستجد أيضًا جدَّك سُمِّيَ لإرضاء جده، وهكذا، مسكين أن تَظُنَّ أن (آدَم) هو اسم (أبي البشر) فقط، (آدَم) هو هذا الاسم الأَوَّلِيّ لكل كائن، فكل كائن به (آدَم) الجدّ، وآدميُّون كثيرون تمّ تسميتهم تيَمُّنًا بالأول، وللأول مكانة، وللأول شرف

t.me/qurssan

ونُبُوَّة.

- آدم: لا أطيق الحديث معك، صوتك يصيبني بصداع، كما أن كلماتك ساذجة غبيَّة ليس لها معنى؛ فالأهم من كل ذلك هو أن نخرج من هنا.
- السجين: لن نخرج من هنا أبدًا.
- آدم: سافل! حقير!

كل شيء هدأ فجأة بصورة لم يتخيَّلها آدم، هدأت انفعالاته حول هُوِيَّته، الحَنَفِيَّة التي تُصْدِر صوتًا يبشِّر بقدوم الماء الذي لا يأتي، زنَّات الذباب الملتفِّ حول جردل البول، كل شيء هادئ بشكل مستفِزٍّ، يَمُرُّ وقت لا يعرف (آدَم) حقيقته، طويل؟! قصير؟! يَمُرُّ فحسب!

- آدم: لم أكن أقصد أبدًا ما قلته لك، إنه صداع فقط، صداع عادي بسيط، ليس شديدًا لتلك الدرجة، كما أنَّني لم أسُبُّكَ مطلقًا! لقد قلْتُ أنَّك سافل، لكنَّها ليست سُبَّة، فكلنا سفلة بشكل أو بآخر، أن تصبح سافلًا وحقيرًا خير من ألَّا تُصبِحَ على الإطلاق؛ فالسافل على الأقل يشير إليه الناس ويقولون هذا سافل، أمَّا أن يشيروا إليك ولا يقولون شيئًا فإنَّه أمر سخيف! وقد لا يشيرون إليك نهائيًّا، تخيَّل أن تعيش

t.me/qurssan

طوال حياتك دون أن يشير إليك أحدهم ويقول هذا السافل الحقير يسير هناك! أَتَرَى كم هذا جميل؟! وأنَّني لم أقصد إهانتك! لم تخبرني باسمك رغم أنَّني أخبرتك باسمي على الفور، لو كنت أخبرتَني؛ لما اضطررت أن أسُبَّك. أنا أحب الصداع؛ أعشقه ولا أستطيع العيش دونه، فأنا الآن بلا صداع، لكنَّني أودُّ لو كان عندي صداع! هل من أحد هنا؟! هل يسمعني أحد؟! هل من أحد هنا؟!

- السجين: أنا هنا، ما اسمك؟
- آدم: ولماذا تسألني؟! أنت الذي تحدَّثتَ أوَّلًا، فلا بُدَّ لي أن أسألك وليس العكس.
- السجين: لا، هذا غير صحيح، أنت من تحدَّثت أوَّلًا؛ فأجبتك: أنا هنا.
- آدم: لم أكن أعرف أنك موجود، كنت أتحدَّث إلى "شخص ما"!
- السجين: أنا أيضًا كنت أتحدَّث مع كائن يُصِرُّ أنه "شخص ما".
- آدم: بما أنك كنت تتحدَّث مع "شخص ما"، وأنا أيضًا كذلك، ولم يظهر حتى الآن؛ فدعنا نتحدَّث

t.me/qurssan

معًا.

- السجين: إنها فكرة رائعة.
- آدم: أنا آدم.
- السجين: كنت أتحدَّث مع شخص يُدْعَى (آدَم) أيضًا!
- آدم: حقًّا، هناك آلاف يحملون نفس الاسم، أريد مِرْآة! لا بُدَّ من معرفة لون شعري، صوتُك قريب للغاية، أين أنت؟!
- السجين: أجلس على كرسي.
- آدم: بداخل زنزانتك كرسي؟! ليس عندي كرسي مثلك للأسف.
- السجين: لماذا دخلت السجن؟ وكيف كانت حياتك قبله؟
- آدم: دخلته بلا سبب منطقي، ربَّما لأنَّني (آدَم) وهذا قدري! أحيانًا ما أشعر أني وُلِدْتُ هنا.
- السجين: كلُّنا وُلِدْنا هنا، ونُوهِمُ أنفسنا بغير ذلك، لكنَّه الوهم الذي يجعلنا نحيَا، هل تزوَّجت؟ النساء أجمل ما في الكون، لقد تزوجت وأنجبت.
- آدم: لم أتزوج، لكنِّي أوافقك؛ النساء جميلات.

t.me/qurssan

- السجين: قد نضحّي بحياتنا من أجل لحظات قليلة تجمعنا بحواء! كم نحن ساذجون! **أنا جائع ويرهقني اللحم الطري الأبيض**.
- آدم: ستفضحنا! كم لديك من الأولاد؟
- السجين: لا أعرف فقد تركتهم صغارًا؛ لا يهمني الأولاد بقدر حواء! سيكبرون بي أو بدوني! أنانيَّة لا أنكر، هذه فطرتنا في النهاية! لكنَّ حوَّاء لا يُمكنها الاستغناء عن خدماتي.
- آدم: ألم أقل لك سافل وحقير وأناني. (يضحك)
- السجين: لا، أنا في الخدمة فقط. (يضحك)
- آدم: ليتني مثلك!
- السجين: ستصبح مثلي لا تتعجَّل، الأمر كله مسألة وقت، هيا غَنِّ معي!
- آدم: لا أحب الغناء.
- السجين: إذن سأغني أنا: "بعيد عنك حياتي عذاب، ما تبعدنيش بعيد عنك"، غَنِّ؛ قد تأتي حوَّاء من أجل حلاوة الصوت: "بعيد عنك، تيرارا، "حياتي عذاب، تيرارا، "ما تبعدنيش بعيد عنك".
- آدم: لا يمكنك أن تملك امرأة داخل سجن!

t.me/qurssan

تكوَّم (آدَم) بجوار السرير وهو يحاول أن يتذكَّر أيَّة فتاة جميلة، لكنَّه شعر لوهلة أنه لم يرَ فتاة جميلة قَطُّ، أرعبه الخاطر، فكل الرجال لا بُدَّ وأنهم رأوا فتاة جميلة ولو لمرة واحدة في حياتهم، هرول داخل دهاليز ذاكرته يفتِّش عن ملامح جميلة محفورة لفتيات كثيرات، ملامح فقط؛ لشفتين منغمستين في روج أحمر، أو نهدين بارزين من ملابس ضيِّقة، قال لنفسه:

- لا أتذكر أنَّني رأيت تلك الملامح من قبل، التفاصيل التي لا يعرفها سوى الرجال، كم أجهل التفاصيل! الشيطان يكمن في التفاصيل! كيف لا أتذكر الشيطان؟! ألم يراودني من قبل؟!

نظر إلى المشكوك في أمره، حي ينادي على ميت! خبط رأسه في القضبان؛ هل لا أزال حيًّا؟!

تشع منه رائحة لا تَخُصُّه؛ رائحة سمك متفسِّخ؛ رائحة الموتى المشبعون بالموت، العجيب أنه يعرف أن النساء جميلات بشكل ما، لكنَّها تَظَلُّ معرفة عامة بلا شيطان، سأل نفسه: لماذا هُنَّ جميلات؟! ماذا لو أنه لا يعجبه شيءٌ بالمرَّة، أو أن كل شيء يعجبه لدرجة العجز الكامل، أن تمرَّ فتاة جميلة بجوارك فلا ينتابك أي شعور تجاهها، أن يمر أمامك آلاف

t.me/qurssan

الفتيات الجميلات فلا تنتبه؛ وتظل في غيبوبتك، فتشعر أنك مثير للشفقة والتقزُّز في آنٍ واحد، أو أنها أعجبته لتلك الدرجة التي دفعته للبكاء، فظَلَّ يبكي كطفل أمام إطلالتها المثيرة، يبكي ويقول: الرجال أطفال أحيانًا، وهي ترمقه بسخرية واضحة، خبط دماغه بقوة جعلت الدماء تسيل على وجهه، يا رب الشياطين لا يسكنون الجنة والموتى يفعلون، ألا يزال الموتى يملكون بعض الدماء؟!

تأمَّله السجان (جابر) وابتسم، ألَا يكفيه ما يتعرَّض له من ضرب، يزيد مصيبته ويشجُّ رأسه، هل يظن هذا السجين الأبله أنهم قد يلتفتون لمثل هذه التصرفات الحمقاء؟ اقترب من (آدَم) كي لا يتسبب غباؤه في قتل نفسه، الأمر الذي لو حدث لن يتردَّدوا في اتهام (جابر) بالتقصير والإهمال، وهو الأمر الذي لن يسمح به تحت أيَّة ظروف، فهو لم يقصِّر يومًا واحدًا في أداء واجبه، على أكمل وجه. وقف خلف بقعة الضوء بحيث لا يراه (آدم)، تلك كانت أوَّل مرة يرى فيها المسجون عن قرب، تجمَّد في مكانه وهو يغمغم:

- إنه يشبه ابني تمامًا! بل إنَّه ابني الوحيد!

هرع (جابر) نحو بيانات السجين؛ ليتأكَّد من الاسم

t.me/qurssan

والتهمة، أمسك الأوراق الاسم: (آدم...)! حمد الله كثيرًا؛ فابنه لا يُدعى (آدم)! دمعت عيناه وهو يتذكَّر أنه لم يرَ ابنه منذ عام تقريبًا. وآخر كلمات بينهما كانت حول خلاف لا يتذكَّره الآن، فهُمَا يختلفان على كل شيء، ترك الملف مكانه، واتجه نحو الزنازين مطأطئ الرأس يباشر عمله.

* * *

t.me/qurssan

سألت (نُهَى) السائق أن يتوقَّف عندما لمحت حبيبين على الكورنيش، انتبهت (فَتْحِيَّة) فسألتها بخُبْث:

- ما قولتيش إنك مش مروَّحة على البيت النهاردة!

تركت (نُهَى) كلماتها على سلم الأتوبيس وهي ترحل:

- افتَكَرْت مشوار كده.

توقَّفت على رصيف الكورنيش حتى تأكَّدت من ابتعاد الأتوبيس، ألقت نظرة سريعة على الكورنيش ثم جلست جوارهما.

حبيبان يتنفسَّان الحياة معًا، الفتاة تجلس منكمشة قليلًا ويبدو عليها الخجل؛ خجل اللمسات الأولَى حين تختلط الأيدي، اقتربت (نُهَى) أكثر حتى تتلقَّف الكلمات الواقعة بينهما، ما الذي سيقوله؟!

- أحبك، أعشقك، ما تزعليش، حقك عليا، وحشتيني قوي، هأشوفك إمتى، أنا مقدرش أعيش من غيرك، بأموت فيكِ.

كيف سيقولها؟! وكيف ستجيبه؟! ستصمت وتبتسم راضية بفارسها؟! أَمْ ستكشف عن غيماتها وتطارحه الكلمات

t.me/qurssan

بما هو أقوى؟! و(نُهَى) تُلَمْلِم بلوزتها وتعدل طرحتها، التي تخبِّئ أذنها عنهما؛ لم يصلها شيء في النهاية؛ يهمسان بصورة مستفِزَّة، اعتدلت في جلستها لتصبح في مواجهتهما تمامًا، كانت يده تتحرك بخفة على ظهر الفتاة وهو يضمُّها إلى صدره، ظلَّت تحملق في حركاتهما وهي تتساءل:

- مالهاش أب دي؟!

تجمَّدت الفتاة مكانها حين لاحظت نظرات (نُهَى) الكاشفة والمندمجة معهما كطرف زائد، بعض الهمسات كانت كافية لتخبر حبيبها أنَّهما تحت المراقبة المستمرة، فليس مُرَحَّبٌ بالغرباء، همساتهما أثارت حفيظة (نُهَى) الغاضبة، فاقتربت أكثر وهي تحدجهما بنظرات السخرية، مما دفعهما للانطلاق بعيدًا عن السوداء المجنونة التي لحقت بهما وهي تغمغم:

- سفلة! زبالة! بتعملوا كده في الشارع!

الأحبَّة على الكورنيش انتبهوا للموقف، وشملوا (نُهَى) بنظراتهم، تفاصيلها العجيبة التصقت بعيونهم؛ طولها، نحافتها، چيبتها التي تبدو كأنها استعارتها ممَّن هي أقصر منها؛ حيث تبدو أرجلها كأرجل كتكوت ينقر عِدَّة نقرات على أرض مبلَّلة، كما أن موضتها قديمة وألوانها باهتة، والبلوزة أيضًا لم تكن

t.me/qurssan

أفضل حالًا، أمَّا عيناها المحملقتان فيشبهان عَيْنَيْ وَحْشٍ جاء يفسد عليهم اللحظة، وحش مختبئ دومًا في ظلام دامس.

لم تصمد كثيرًا أمام نظراتهم، لملمت بلوزتها وتأكَّدت أن أزرارها مغلقة، وانطلقت بعيدًا وهي تحفظ خطواتها بالأرض كي لا تتعثر، كم تودُّ الاختفاء الآن!

تردَّدَتْ كثيرًا قبل أن تجلس بجوار حبيبين آخرين في الناحية الأخرى من الكورنيش بعيدًا عن العيون، أمسكت هاتفها وتصنَّعت الحديث في الهاتف، بدأت حديثها مع شخص وهمي، بينما تنتقل نظراتها بين الفتاة والشاب الجالسين بجوارها، نظراتهما تحمل لمعة تكشف أسرار عشقهما وتنقل ما لم يُقَلْ، ذرات الهواء تصنع حاجزًا زجاجيًّا يفصلهما عن العالم؛ حتى أنهما لم يلحظا (نُهَى) التي بدت خفيَّة كعفريت غير مرئي، ضحكت الفتاة بصوت مرتفع، فابتسمت (نُهَى) على أثر ضحكتها؛ فقد شعرت بسعادة وهي تسمعه يهمس في أذن فتاته:

- يخرب بيت اللي يزعلِّك يا شيخة، باعشقك!

ردَّت (نُهَى) من مكانها:

- وأنا كمان بحبك، بحبك يا (آدَم)!

t.me/qurssan

وضحكت للهاتف في يدها، فابتسمت الفتاة التي سمعت ضحكتها، قررت (نُهَى) الرحيل، فقد اكتفت بتلك الجملة، قلَّبت يدها بين ذرات الهواء الصلب، وهي تتأبَّط ذراع شخصها الوهمي الذي ترك الهاتف وأسرع للحاق بها، ابتسمت له وتحرَّكت معه بخطوات ثابتة، سألته:

- أنت فين يا آدم؟! قولِّي يخرب بيت اللي يزعلِك يا شيخة.

فلم يرد، لكنها لم تكترث كثيرًا وخصوصًا حين لمع عنكبوتها من كم بلوزتها، ربتَتْ عليه، وابتسمت في صمت.

* * *

t.me/qurssan

- السجين: كيف سنهرب إن كنت لا أعرف شكلك إلى الآن؟! السجن حتمِيٌّ يا صديقي! سنظل مساجين للأبد! ينقصك قليلًا من اليأس!
- آدم: أف! أنا إنسان! أقسم بالله أنَّني إنسان!
- السجين: الإنسان ظِلُّ الإله على الأرض، وأنا أعرف تمامًا حجمه، لكن ما يحيِّرني حقًّا، لماذا خلق الله أمثال هؤلاء؟! لماذا يضعني في منتصف الطريق بينه وبينهم وهم يترنحون مدَّعين الإنسانيَّة ببساطة البُلَهَاء؟!

صمت (آدَم) قليلًا يفكِّر، بينما يراقبه (جابر) كظِلِّه -تاركًا باقي السجناء- يقف خلف بقعة الضوء مباشرة، بطريقة لا تجعل (آدَم) يراه حتى يظلَّ على طبيعته، وعندما تستطيل نظرة (آدَم) في نفس اتجاه وقوف (جابر)؛ يخجل سجَّانه من تلك المراقبة المستمرَّة لأدقِّ التفاصيل، التفاصيل التي لا تهم أحدًا غيره، فالتفاصيل تخلق ابنه الوحيد، يراه في ثياب السجن مكسورًا، يجلس القرفصاء، ويصنع إيماءة بوجهه؛ فيستجيب ما في جوفه لينساب خليطًا بُنِّيًّا من مؤخِّرته، قد يتلوث جلده فلا يجد ماء. ينصرف (جابر) سريعًا، وتبقى عيناه وحيدتين على أعتاب الزنزانة، يُحدِّث نفسه:

- لكنه ليس ابني، فابني لا يُدعى آدم.

t.me/qurssan

ويكف لأيَّام عن الاقتراب، لكنه سريعًا يعود ليقول:

- وماذا لو كان يُدعى آدم؟!

يقفز مرتعش الخطوات نحو الزنزانة، فيرى (آدَم) في أرضيَّة الزنزانة متكومًا بلا ملامح، يقترب (جابر) أكثر ليعرف ما الذي يفعله على هذه الوضعيَّة؟! كان (آدَم) يدندن بكلمات، يقترب أكثر ويتذكَّر ابنه الذي اشترى عودًا وأخذ يتدرَّب عليه بعض الوقت قبل أن ينهره (جابر)، لم يكن لولده صوتٌ جميلٌ؛ لكنَّه كان مُصِرًّا أن يكون عندليبًا، والعندليب لا يقطر الهواء بنشاز يشبه صرير الأبواب. الأبواب التي لا تتوقَّف عن الحركة الدائبة حتى يختنق (جابر) ويحطِّم عوده.

- لماذا فعلت ذلك يا (جابر) ؟! لو عاد ابني الذي لا يُدعى (آدَم) سأشتري له عودًا جديدًا.

لكنَّ العندليب لم ييأس، يجاهد محاولًا تقليد أم كلثوم حتى تنقطع أنفاسه: "بعيد عنك حياتي عذاب"، ملأت أرجاء الحمَّام حتى فرَّت الشياطين هاربة، كم كانت تلك التصرفات تثير غضبه بالأمس! لكنها الآن تُضحِكه وتُبكِيه. اعتلت دمعتان خَدَّ (جابر)، اقترب أكثر من الزنزانة، لو رفع (آدَم) رأسه سيتمكَّن من رؤيته لأول مرة. منذ فترة لم يرَ السجين

t.me/qurssan

أحدًا، وهذه هي التعليمات، لكنَّ (جابرًا) الذي لم يَعْصَ أمرًا واحدًا لم يستطع أن يمنع نفسه من الاقتراب، التعليمات جعلت خطواته أبطأ لكنَّها لم توقفها، ألصق أذنه بالقضبان ليسترق السمع إلى ما يُقال، لم يشعر به (آدَم)، وظَلَّ يُدَنْدِنُ بصوت مسموع: "بعيد عنك حياتي عذاب، ما تبعدنيش بعيد عنك".

لم يشعر (جابر) بنفسه وهو يقتحم حجرة الباشا، الأمر الذي جعل حضرته يَهِبُّ واقفًا، فلا بُدَّ أَنَّ الأمر خطير، وأَنَّ هناك مصيبة قد حدثت بالفعل.

- خير يا (جابر)؟! حصل إيه؟!
- إنتوا بتعملوا فِيَّا كده ليه؟! للدرجة دي أنا رخيص عندكم؟! ده أنا عمري ما عصيت أمر واحد، تسجنوا ابني؟! وفي حبس انفرادي! وبإيدي أنا أعذِّبه كل العذاب ده!

يستلقي الباشا بهدوء، بينما يندفع (متولي) محاولًا تهدئة (جابر) الذي فقد أعصابه.

- خُدُه يا (متولي) وهدِّيه كده، وشربه لمون، أنا هَعْتِبِر نفسي ما سمعتش حاجة عشان (جابر) من أخلص الناس هنا، بس إحنا لينا حدود في الصبر.

t.me/qurssan

خرج (متولي) وهو يسحب (جابرًا)، وسط صرخاته التي أخذت ترن لفترة خارج الحجرة. وبتوحيد الله والصلاة على النبي هدأ (جابر) قليلًا، وفي المكتب المغلق كان الباشا يشرب قهوته وهو يغمغم:

- عكر لي مزاجي ابن الوسخة ده!

جلس (جابر) في الخارج، وظَلَّ (متولي) يمسح له عرقه الذي غسل وجهه. (متولي) صديق مقرب لجابر ويعرف عنه كل شيء تقريبًا.

- والله يا (جابر) ابنك زيّ ابني، بس هو دلوقتي في مكان أحسن! شكلك محتاج أجازة، إنت مضغوط قوي لدرجة إنك تشوف عيِّل من المساجين دول ابنك! مافيش فيهم حد شبهه حتى!

ارتفع نشيج (جابر) عاليًا، وظَلَّ جسده يَرْتَجُّ مع نهنهاته العالية:

- ده قضاء ربنا يا (جابر)، حادثة، كلنا مُعرَّضين يحصل لنا أي حاجة، خليك مؤمن بالله يا أخي! وبعدين أنت زعَّلت الباشا النهارده والراجل بيحبك وحضر جنازة ابنك بنفسه! إنت مش مؤمن بالله ولا ايه؟!

t.me/qurssan

- ما كنش بيحبِّني يا (متولي).
- حرام عليك ما تعملش كده في نفسك، وحد الله!

لم يتركه (متولي) لحظة واحدة، كما أنه اعتذر للباشا عمَّا فعله صديقه، وتوسَّط له كي يحصل على إجازة مدة أسبوع ليريح أعصابه.

- ماكنش طايق البيت يا (متولي).
- الشباب كلهم كده، كلنا بتحصل بينا وبين أولادنا مشاكل.
- كان حاسُّه سجن!
- تَعَالَ يا (جابر)، هَوَصَّلك البيت، مش هسيبك لوحدك.
- ابني سابني كأنه قاصد يعذِّبني، بس أنا مقصدتش أزعله، أنا بقيت مقطوع ماليش عيل، ماليش حد.

تحرَّك (جابر) يَجُرُّ أقدامه وهو يردِّد بصوت مخنوق: بعيد عنك حياتي عذاب!

* * *

t.me/qurssan

منذ دخول (فَتْحِيَّة) المصنع وهي تزعق في الموظفين، تقتحم الحجرات وتتَّهم الجميع (بالسفالة وقلة الأدب)، الصدى يتردَّد تلك المرة مختلفًا، يقولون (فَتْحِيَّة) فقدت عقلها وتسير خلف السراب، والسراب لا يُغيِّر الواقع ولا يروي الظمأ! ستفشل محاولاتهم في إقناعها بأنَّه لا أثر لفتاة تشبِهُها، كما سيسقط قسم زوجها أرضًا وهو يقول:

– والله العظيم ما خنتِك!

ستسير خلف أسراب الذباب التي تَهِجُّ خارج رأسها وتأخذ دورتها في وهج أسود داكن، تحوم حولها فتُبْقِيها مُتَيَقِّظَة طوال الوقت، تتسمَّع الكلمات المعلَّقة بذرَّات الهواء؛ ففَتْحِيَّة لن تسمح لبيتها باحتواء عاهرة. تنتهي من فنجان قهوة؛ فتطلب غيره حتى تحافظ على يقظتها، والهالات السوداء تلتصق بجفنيها تصنع آلاف الدوائر مركزها بُؤْبُؤ عينها الشارد في مكان آخر؛ فلا تُلقي تحيَّات الصباح على أحد، كما أنها لم تَعُدْ تزعق في الموظفين حين يدهسون الورد. وجدت حلًّا يجنِّبها الناس، حيث انتزعت بعض الزهور من بين الحشائش دون أن ينتبه أحد، وغرستها في أصِّيص زرع، وضعت فيه بعض الطين. كان الورد كثيرًا ويحمل ألوانًا مختلفة، أخذت تسقيه كل يوم بعد

t.me/qurssan

أن وضعته على مكتبها وهي تردِّد:

- أي أرض أضيق من أصِّيص زرع؟!

صارت الملفات أكوامًا أمامها دون أن تُمَسَّ، لم يَعُد هناك غير (نُهَى) تقوم بكل أعمال شُؤُون العاملين، فآدم متغيِّب، و(فَتْحِيَّة) تائهة في عالم آخر؛ ينقص وزنها بصورة مستمرة، حيث ذهبت شهيَّتها بلا رجعة، لا أحد يراها تأكل كما كانت من ذي قبل، وجسدها يَخِفُّ كأنَّ هناك من يقتطع من لحمها المترهِّل قطعة كل يوم! الوشوشات تعلو، يقولون إنها تخضع لحِمْيَة قاسية فالمدير لم يَعُدْ يحب البدينات، وها هو قد ظهر جمال (فَتْحِيَّة) الخَفِيُّ حين نقص وزنها، ظهر جمال عينها الواسعة، وملامحها الفاتنة، وبياض جسدها الذي لم يَعُدْ مترهِّلًا. العاهرات بدينات و(فَتْحِيَّة) بدينة! العاهرات نحيفات و(فَتْحِيَّة) نحيفة! العاهرات قبيحات و(فَتْحِيَّة) قبيحة! العاهرات جميلات و(فَتْحِيَّة) جميلة! العاهرات هُنَّ مدام (فَتْحِيَّة)!

ارتفع نَشِيج (فَتْحِيَّة) وهي تردِّد كل ما يسري في أذنَيْها؛ وكل ما تخبرها به الفتاة التي تطاردها، و(فَتْحِيَّة) تغلق المكتب والنوافذ في محاولة يائسة لإبعادها، لكنَّها سريعًا ما

t.me/qurssan

تستسلم وتسير خلفها كطفل يُغْرِيه أحدهم بقطعة شوكولاتة. تطير (فَتْحِيَّة) ولا تكترث لشيء، تَرِفُّ خلف السراب الذي يَزِنُّ دون أن تجد ماءً فتملأ كأسها بالشمس فلا ترتوي ولا تظمأ! والفتاة بارعة في الإغواء ما إن تنادي:

- تعالي إليَّ؛ سأخبركِ الحقيقة!

وما الحقيقة؟! تدفس رأسها، ويعلو نشيجها عاليًا، وهي تعلم جيِّدًا أن المدير لا يعجبه حال شُؤُون العاملين، حيث أصدر اليوم قرار فصل نهائي بخصوص (آدم). أمَّا بالنسبة لها فلم يَبِتّ في أمرها بعد. لن تنتظر حتى يفصلها، لا بُدَّ من وجود حَلٍّ، قامت من جلستها وانطلقت نحو (عزيزة) صديقتها القديمة؛ ستسألها هل كانت تشبه الفتاة الجديدة حين كانت في سِنِّها؟! هل فعلت فعلًا ما يُقال عنها؟! هل شاركها المدير شمسها المختبئة أسفل ملابسها؟! وإلى أي مدى انطفأت بين يديه؟! ومتى وكيف؟! جلست إلى (عزيزة) التي صارت منتبهة وقلقة، فحركات (فَتْحِيَّة) غير محسوبة في الآونة الأخيرة:

- أنا هَتْجَنّ يا (عزيزة)!
- بعد الشرّ عليكِ يا (فَتْحِيَّة! مالك يا حبيبتي؟!
- أنا كنت بلبس إيه وأنا صغيرة؟
- بمعنى؟

t.me/qurssan

- كنت بلبس قصير؟
- كلنا كنا بنلبس قصير.
- لبست الهوت شورت؟!
- لا إحنا كنا بنلبس الهوت چيب (وانفجرت في الضحك) أيام بقى!
- طب والمدير؟!
- ماله؟!
- جبت لك سيرته؟
- ما انتِ اللي طلَّعْتِ عليه انه بيحبِّك عشان ولاد الكلب يبطَّلوا يقولوا عليكِ تخينة، وأديكي اتجوِّزتي بسبب الإشاعة دي.
- شوفتِ حاجة وحشة مِنِّي في الشركة؟
- أبدًا يا (فَتْحِيَّة)!
- طب حد قالِّك إنه شافني بعمل حاجة وحشة مع المدير؟!
- إنتِ شاغلة دماغك بالناس ليه كده؟! وبعدين إنتِ صدقتِ كدبتك ولا إيه؟! مدير إيه اللي هيعبَّرك واللا يبص لواحدة زيِّك وزيِّي! ماتركزيش مع الناس، اللي هيركز مع الناس مش هيستريح.

t.me/qurssan

- هُمَّ اللي مركزين معايا!
- ده موضوع قديم وماحدش فاكره!

* * *

t.me/qurssan

أنظرُ إلى وجهي في المرآة:

- أنا (نُهَى) السوداء، الصلعاء، القبيحة، لكنَّني أُعجِبه رغم كل شيء.

أرمق (نُهَى) القابعة في المرآة باستعلاء وثقة، أنظر إلى سِرِّي الصغير بخُبْث، وأسأله:

- اقترِب يا صغيري، وقل لي كم تعجبك (نُهَى)؟

خفضْتُ رأسي نحو كَفِّي المبسوط فلفحته أنفاسي الحارَّة. أحسَسْتُ بأرجله تداعب راحة يدي وتقبِّلها، لقد فقد واحدة تحت شبشب (فَتْحِيَّة)؛ فهم سبع أرجل فقط، خلعت ثيابي وجلست (بطقمٍ داخليٍّ) جديد، لونه (فوشيا) فاقع يبدو لامعًا على سواد جسدي المنقرش!

باتت حجرتي مغلقة دومًا؛ ليهنأ صغيري بِعُشٍّ مظلمٍ دافئ وامرأة جميلة اشترت عِدَّة أطقم داخليَّة؛ ليبدو جسدها مثيرًا بين يديه، صحرائي ملساء ناعمة تستقبل خربشات أرجله السبع الخشنة بهزة الفرح، الفرح العارم بالسيل القادم من الأعلى، السيل الذي يخبر الصحراء كم هي جميلة! ابتسمْتُ للمرآة وأَطَلْتُ النظر على نسختي الجديدة.

t.me/qurssan

خلعت ثيابي كاملة حتى صِرْتُ عارية، ثم ألقيت ليلي على السرير وشدَدْتُ إليَّ الملاءة لأخفي عُرْيِي؛ فلا يراه سواه. انطلق بحراشِفه الخشنة وجسده الصغير، يجري بين ثنايا جسدي ويصنع الخيوط التي تُقيِّد حركتي قليلًا، أغمضت عيني في استسلام، ثم بكيت وصرخت كالمجنونة:

- قولِّي: يخرب بيت اللي يزعلك يا شيخة!

ارتعش جسدي النحيل الرمادي وسط صوتٍ ينطلق من داخلي المرتجف:

- أعشقُكِ يا حوَّاء وأنتظر ميلادكِ بين يدي!

* * *

t.me/qurssan

تأكَّد لي موت ابني حين وجدت زوجتي تَنْعق في المطبخ كعادتها، أَحَسَّتْ بارتباك خطواتي لكنَّها لم تكتَرِث. أَلْقَيْتُ التحيَّة عليها فغمغمت بصوت مبحوح كغراب فَقَدَ صوته، وبَهَتَ لونه من أثر الغسيل المتكرِّر للجلباب الأسود، أما الشبشب فظلَّ ببريقه الداكن، لم تخلع الأسود منذ الوفاة، ظلَّت منشغلة بما تفعله دون أن تنظر إليَّ. ارتقيْتُ سريري البارد واعتصرت الوسادة داخل صدري.

– هل ستأتي لتسألني ما بك؟!

سأخبرها أنِّي رأيت ابني اليوم، ابني الميِّت المسجون، هل هناك في الدنيا أسوأ من أن تَسْجِنَ مَيِّتًا؟! لقد فعلتُ أسوأ ما في الكون بقلب هادئ ونفس مطمئنة. تسمرت عيناي على سقف الحجرة المشقَّق المتهالك، وشعرت للحظة أنه سقط فوق رأسي وأني قد هلكت بالفعل. صدري مثقل بالركام وجسدي يئِنُّ تحت الأنقاض. هل يمكنني إخبارها أنَّ ابني الذي لا يُدعى (آدَم) يشبه (آدَم) تمامًا؟! وأنَّني اقتحمت مكتب الباشا من أجله. تغيَّرتِ كثيرًا يا غُرَابَتِي الحلوة منذ اشتدَّ عود الولد، الولد الذي أتى بصعوبة بالغة بعد محاولات كثيرة وأطباء أكثر، لم أفكر في إنجاب طفل إلا لإرضائكِ وحدكِ. كُلَّما اختلفت معه

t.me/qurssan

حول أمر تافه؛ غضبتِ، وكفَفْتِ عن السؤال الصعب: ما بكَ؟! يموت السؤال ونموت معه. ألَا تدرين أنكِ تملكين طريقًا نافذًا للداخل، ثقبًا تستطيعين منه مَدَّ يدكِ لتمسكي قلبي وتحركيه بين أصابعكِ، وقد تقتلعينه لو شِئْتِ وتَلْأَمِين ثقبه ببعض الخيوط، لقد ارتضيْتُ ذلك منذ البداية؛ فلا يجوز لي الاعتراض الآن على مشيئتكِ، لكنَّكِ لم تكوني رحيمة يا غُرَابَتِي، لم تَلْأَمِي جرحي جيِّدًا فما زال ثقبي ينزف، ولم تُعَلِّمِي البشريَّة كيف تدفنيني حيًا! لن أكون رحيمًا معكِ وأخبركِ كيف وجدته اليوم! لم أكن أَوَدُّ الكثير؛ فأنا لم أقصد كل ما فعلته معه. ما بكِ يا غُرَابَتِي الحلوة؟! ما بكِ؟! للأسف ما زلتُ قادرًا على السؤال الصعب!

دخلت زوجتي وهي ممسكة بقميص ابْنِنَا تنقب في الأدراج عن إبرة وخيط، وَدَدْتُ لو أسألها أن تخيط ثقبي؛ وتَسُدَّ الطريق للداخل؛ فالداخل مهجور. ألقت عليَّ نظرة وأنا أتململ في سريري، وهمَّت بالخروج قبل أن أباغتها:

- أنا شفت ابننا النهارده.
- إيه؟! أنت بتقول إيه؟!
- مسجون شبهه الخالق الناطق.
- آه! وعملت معاه إيه؟

t.me/qurssan

- ولا حاجة هَعْمِل إيه يعني.
- حتى لو ابنك، ماكنتش هتعمل حاجة.
- أنا كنت هَرُوح في داهية النهارده بسبب الموضوع ده، دخلت شتمت الباشا، بس الحمد لله راعَى ظروفي، وعدّت على خير.
- لازم تعدِّي على خير، الباشوات برده مش بيفرطوا في كلابهم بالساهل!
- إنتِ بتعملي فيَّا كده ليه؟! ده ابني زيّ ما هو ابنك، لو قام من تربته وسألتيه هيقولك هو بيحبني قد إيه.

ابتلعتُ دموعي وأنا أرى صورتها الزجاجيَّة تهتزُّ أمامي، رأيت في عينيها نظرة لم أرها من قبل طوال حياتي، حتى في أصعب أيام العزاء، ولم أتخيَّل أن تكيل لي يومًا ما مثل تلك النظرة؛ إنها نظرة تَشَفِّي تُؤَكِّدُها شفتاها المبتسمتان.

ساد صمت بارد ثقيل قبل أن تستطرد:

- إحنا فيها، روح اسأله! أهو قُدَّامك في الزنزانة طول الليل والنهار!

* * *

t.me/qurssan

- السجين: وماذا لو كان بالبطاقة أنثى؟!
- آدم: كشف عذريَّة بسيط!
- السجين: ماذا؟!
- آدم: نعم الإجراءات الأمنيَّة يا عزيزي، فالأوضاع غير مستقرَّة في البلاد.
- السجين: وما الذي يهدِّد الأوضاع في ذلك؟!
- آدم: يقولون إنه خطر على الأمن في البلاد، والجميع يصدق.
- السجين: لا يمكن لأحد أن يصدِّق هذه التخاريف، ما يبدو لي أنك كائن ما، قد تكون كلبًا وديعًا أو قطًّا شرسًا، لا يهم الشكل، فجسدك مؤقَّت على كل حال! وقد قاموا بفحصك لمعرفة نوعك قبل شرائك والإتيان بك في قفص يفوق حجمك بقليل، وهنا يُقَدَّم لك الطعام من قِبَل الحراس والمالكين، وأرى أنهم يدلِّلونك كثيرًا، هكذا يبدو الأمر منطقيًّا، كما أن للإناث أهميَّة خاصَّة، فأَيُّ مالك يتمنَّى دومًا لحيواناته الأليفة أن تتمكَّن من الإنجاب، حتى لو تخلَّص من الأبناء، أظن أنك تخسر الآن، ما أقوله يبدو منطقيًّا!

لم يستطع (جابر) أن يمكث في البيت، أكثر من

t.me/qurssan

يومين؛ السجن أهون بكثير من النعيق المستمر، ساعدته الإجازة في استرداد نشاطه، اتَّجه سريعًا نحو زنزانة (آدَم) ليطمئِنَّ عليه، نظر (آدَم) لبقعة الضوء قبل أن يجيب زميله، فلاحظ خيالًا على الأرض يقترب، هَمَّ من رقدته في الوقت الذي اقترب (جابر) فيه، حتى صار الاثنان في مواجهة بعضهما البعض، يودُّ (جابر) أن يرى مدى الشبه بينه وبين ابنه عن قرب، فمتولي مُصِرٌّ أنه لا يشبه ابنه على الإطلاق. كانت تلك أول مرة يرى (آدَم) سَجَّانَه، قال محدِّثًا نفسه:

- هل تخونني عيناي؟! ها أنا أرى إنسانًا أخيرًا! كما أعرفه بالضبط! له يدان وقدمان ورأس!

ودَّ (آدَم) لو استطاع الحديث إلى صاحبه الآن ليخبره أنه إنسان كالماثل أمامه، انتظر (آدَم) أن يتفوَّه الواقف أمامه بأيَّةِ كلمة، لكنه ظلَّ صامتًا، وكانت عيناه تتأمَّلان (آدَم) باستغراب كمن يرى شيئًا مختلفًا، يتفحص كل جزء فيه؛ وجهه الطِّينِيَّ، يديه، رجليه، يجُول بنظره داخله، داخل عينيه العسليَّة، ينفذ إلى داخل فمه، يبتلعه مع ريقه المرّ، يدلف إلى أجزاء ملابسه، إلى ما يقع أسفلها، إلى جسده المثقوب، إن الماثل أمامه هذا الذي ليس هناك أدنى شك في إنسانيَّته، يتأمَّل (آدَم) ويستكشف هيئته، كمن يستكشف هيئة جديدة عليه،

t.me/qurssan

لا يعرف عنها شيئًا. كانت تلك النظرات تؤكِّد لآدم أنه لا يشبه الواقف أمامه، وربما لا يمت لهذا الشكل الإنساني بِصِلَة، تحوَّلَت نظرات الإنسان أمامه إلى شفقة، وربما إلى حب، ينظر لآدم بحب لا يتناسب مع شخص يرى شخصًا لأول مَرَّة، ولا يتناسب مع رجل يرتدي بذلة عسكريَّة ومسجون! شَعَرَ (آدَم) أن هذا الانسان يَوَدُّ أن يربت عليه، ويداعب فَرْوَهُ، ويضع له طعامًا في فمه! وأن عليه أن يجرى نحوه ويلعق أقدامه وهو يهز ذيله! ارتعد (آدَم) وتخبَّطت خطواته حتى التصق بالقضبان الخلفيَّة، وهو يشعر بالرعب من الناظر إليه هذا الذي يُدعى إنسانًا، له هيبة وقدسيَّة لم يتخيَّلها من قبل، هذا انعكاس الإله، بل هو إله منزَّه عن كل نقص! فرغم نظرات الحب التي يبعثها إليه، لكنَّ وقوفه في حدِّ ذاته يمثِّل خطرًا عليه، تأمل (آدَم) جسده الخائف وقال:

- هل أنا محموم وما أراه الآن ليس أنا؟! هل هذا الذي كنته من قبل؟! أَمْ هذا أنا الذي لم أكنه أبدًا؟!

انكمش (آدَم) وهو يشعر بمدى حقارته وتواضعه، أحسَّ بآلام جسده، والكدمات التي تصنع في جسده قوس قزح، ارتفعت رائحته الصاخبة إلى أنفه، لا يريد لهذا العظيم أن يشم رائحته، ويكشف بواطن عفنه، وامتزاج روائح الآخرين به.

t.me/qurssan

وقف (جابر) يضرب كفًّا بكف متعجِّبًا من (متولي) وهو يردِّد كيف لا يشبهه؟! لم يتحمَّل (آدَم) تململ إنسانه، فسقط في البياض ليسأل بأعلى صوت:

- هل للكائنات الأخرى نصيب من الجنة؟!

* * *

t.me/qurssan

عُدْتُ من المصنع فوجدت حجرتي مفتوحة، وقد قامت أمي بتنظيفها؛ أزالت خيوط العنكبوت عن الجدران، أَنَّ قلبي المسكينُ:

- هل قَتَلْتِ عنكبوتًا هُنَا؟!

لكنَّ أمي قاطعتني بعصبيَّة:

- متقدم لك عريس يا (نُهَى)!

وضحكت من فرط فرحتها! تجمَّدتُ مكاني، ونسيت كل شيء عَدَا أَنَّ لي صلعة ناصعة السواد، خلعتُ غطاء رأسي لِتَحْرَسَ أمي عن الضحك:

- كنتِ بتقولي إيه بَقَا؟! شكلِك نسيتي! يا رب تكوني افتكرتي دلوقتي!

انخفض صوت أمي، وخبَّأَتْ ضحكتها أمام عيني الباردة.

- عريس متقدِّم لك، وكلِّم أبوكِ النهارده، نقولُّه لأ؟!

ثم استطردت بعد تنُهيدة طويلة:

- كله بيتصلَّح.

t.me/qurssan

انطلق أبي خارج الحجرة، لكنَّ أمي ظَلَّت جالسة بجواري تُحايلني كثيرًا، وتبكي أحيانًا. أن أتزوَّج حتى لو طلَّقني زوجي خيرًا لي من أن أظلَّ بدون زواج، ثم بعض العِظَات عن طاعة الوالدين وإرضائهم، كلمات أخرى لاذعة حول كَوْنِي لست جميلة و"ما ينفعش أتأمَّر!". أنا أعلم أنَّني قبيحة للغاية، فلا تُجَمِّلي الكلمات، ولا تملك أمي غير الكلمات، كلمات أخرى تخوِّفني من الوحدة بعد وفاتها هي وأبي، ثم زمجرات واستعطافات كثيرة، امتلأت صلعتي! وبعد أن أنهت أمي وصلتها المطوَّلة أغلقَت الباب، "ليت للباب قفلًا وجنازير! أنا لست وحيدة! أنا خائفة يا أمي! وحضنك بعيد كحضن الغريب القادم!".

بحثْتُ عن رَجُلِي الصغير في أنحاء الحجرة لكنِّي لم أجده! هل أزعجته أمي فرحل؟! أم انتهز الفرصة للرحيل وكأنَّ شيئًا لم يكن؟! لم ينتظرني! لا يُجِيد الرجال انتظاري حتى وإن أقبلت في موعدي! لن تتنفَّس الهواء من حولي يا صغيري، ولن تلتصق بليمونتيَّ تُلْمِعُ قشرتهما وتبتسم. سأعاقبك بألَّا أسقيك حليبي المعَطَّر بأخبار الصباح بعد اليوم، سيطول لَيْلِي بلا قمر ولا حرير، وسأنام على فراشي الخشن وأدَّعِي أني أعاقبك! سأكذب وأقول: لا شيء ينقصني في غيابك، سأكذب حين

t.me/qurssan

أقول: إنَّني لم أختزل الوجود فيك! الأمر لا يحتاج للكذب، من أنا؟! من تبكي الآن؟! لم يلحظ أحد وجودي يا صغيري! لا يشعر أحد بي، ولن يشعر بك أحد يا قلبي المسكين! اصمت قليلًا يا قلبي! لا أريد سماعك، دَفَسْتُ وجهي في المخدة حتى لا يسمعه أحد، وهو يصرخ.

الحزن يحتاج إلى الإطراء، في الصباح حين رأيتُ مدام (فَتْحِيَّة)؛ ذهبتُ إليها لأخبرها عن حزني بِزَهْوِ بنت لم تدخل في التجربة:

- أنا جايلي عريس.
- (فَتْحِيَّة): بجد! ألف ألف مبروك.
- بس أنا لسه ما وافقتش.
- هتوافقي.
- ليه أنا ممكن أرفض، عادي!

انسحبت (فَتْحِيَّة) بالكرسي بعد أن زَمَّت شفتيها.

- أنا خايفة! هُمَّ ليه بيشتكوا؟! بأشوفهم واقفين مع بعض بيشتكوا من الجواز وسنينه، وأوِّل ما يشفوني يسكتوا، ويسألوني مافيش جديد؟!
- (فَتْحِيَّة): عادي، وهيفضلوا يشتكوا طول الوقت، لما

t.me/qurssan

بيمد إيده على مرتَّبي آخر كل شهر، بَشُوفه قدَّامي واحدة ست، هو مش حرام إن الست تنام مع واحدة ست؟! وأديني بَعْمِل الحرام عشان الولاد!

ابتلعْتُ ريقي وتنهَّدْتُ.

- (فَتْحِيَّة): كلنا كده بنشتكي قبل الجواز وبعده .
- أنا ماشتكتش من حاجة.

رمقتني (فَتْحِيَّة) بنظرة خبيثة:

- مبروك يا (نُهَى)!
- الله يبارك فيكِ.

* * *

t.me/qurssan

فتح عينيْه؛ فجرحه اللون الأبيض المقِيت! الحجرة البيضاء تُرَاوِدُه بأشجارها الوافرة، لكنَّه لم يجِد ذبابة واحدة! قال (آدم):

- الزنزانة أفضل!

وانطلق نحو المرآة ليرى هيئته الآدميَّة علَّه يطمئِنُّ؛ فلم يجد انعكاسه، قال:

- ليس لي ظِلٌّ على الأرض!

ولم يَعُدْ قادرًا على حَمْلِ جسده؛ فتكوَّم في الأرضيَّة، وبدأ نشيجه؛ فاستجابت المرآة لِبُؤْسِ حاله لتكشف عن انعكاس رمادي ضئيل، التصق بالمرآة فلم يجد قدمين أو يدين أو رأسًا! ازرقَّ قلبه وارتفع نشيجه عاليًا حتى أفاق من كابوسه وهو يصرخ:

- متى يتحوَّل الواقع إلى حلم؟! متى؟!

تحرَّك بحركة آليَّة نحو جردل البول، وفتح (سوستة) بنطاله، لكنَّه لم يجد الجردل! انفتحت عيناه نصف المغمضتين عن آخرهما، الجردل غير موجود! أيَّتُها الملائكة الرحيمة، أريد الجردل؟!

t.me/qurssan

عاد إلى سريره وهو لا يعرف كيف يتصرَّف حِيَال تلك الكارثة، أين سيتحرَّر بوله؟! لا يمكن أن يفعلها في أي مكان هكذا؛ فالزنزانة لا تحتمل! ارتفعت أنفاسه وهو يحبس غيثه عن السقوط، فكَّر في استخدام الحوض عِوَضًا عن الجردل، وشعر أنها فكرة ممتازة، لكنه لن يصل إليه إلا بالوقوف على السرير، وسيحتاج الأمر دقة في التصويب وهدوءًا حتى لا يُغْرِق ملجأه الوحيد، لكنَّه تراجع حتى لا يتلوَّث سريره. الانتظار أفضل شيء فقد يأتي السجَّان، وربما يكون هو من فعل ذلك لِيَسْخَرَ من حيوانه الأليف! لا يمكن أن يتركهم يسخرون منه، لن يُبَلِّلَ ملابسه كطفل صغير، جلس فترة على طرف السرير يهتزُّ كالبندول، ثم دار حول نفسه حتى احتقن وجهه بعد فترة قصيرة، ولم يَعُدْ قادرًا على التحمُّل أكثر من ذلك، فكَّر في التبوُّل للخارج نحو القضبان، من الممكن أن تَرْتَدَّ بعض القطرات كرذاذ المطر، لكنَّ ذلك أفضل من أن تغرق ملابسه بالكامل، أسرع نحو القضبان بينما هبطت قطرتان لتلوِّثا بنطاله، تنهَّد وهو يُطْلِق غيثه للخارج، قال في طفولة:

– لقد نجحت! لم أفشل بصورة كاملة.

ثم بكى في طفولة، وخلع ملابسه حتى صار عاريًا، كان يشعر بعيونهم ترقبه وتضحك من عُرْيِهِ، ضمَّ رجليه ليخفي

t.me/qurssan

جسده عن نظراتهم، ودفس وجهه للأسفل حتى لا يرى أحدٌ دموعَه.

- السجين: لو لم تكن إنسانًا لَمَا تحمَّلْتَ كل هذه المعاناة، لكنَّك مُصِرٌّ.

الإنسان دومًا أموره معقَّدة، ستنظِّف جسدك وتلعقه وتزيل أوساخه بلسانك، ستصبح نظيفًا في لحظات قليلة، وتتخلَّص من بولك في أي مكان دون أن تستشعر الحرج، ومن حُسْن حظِّك أن تكون صغيرًا فتخرج من بين القضبان وتصير حرًّا، يمكنك الانتقام من أعدائك، أنت أقوى حين تصير حيوانًا!

- آدم: لا تحدِّثني ثانيةً!

اختنق صوت (آدَم) وهو يتوارَى بجسده عن الأنظار.

جلس شيخه بجواره يربت على كتفه العاري:

- سايبهم يعملوا فيك كده ليه يا حمار؟!
- اتركني لحالي يا شيخي! لماذا تأتيني الآن؟!
- لأن الشيطان يأتيك الآن يا ولدي، انظر إلى الشجرة يا آدم!
- اتَّجه بجسده حيث أشار؛ كانت الشجرة عارية مثله بلا

t.me/qurssan

ثمار ولا أوراق.

- من فعل هذا يا شيخي؟!
- الآدميُّون كثيرون، وجميعهم جوعَى وعُرَاة، ورقة واحدة تصنع المعجزات! قدرك أن تبقى بلا معجزة!

أدرك (آدَم) مصيره الحتمي، فانتفض، وارتفعت نهنهاته تشق الأفق!

- السجين: سأُنْهِي مأساتك يا آدم، أنا أراك جيِّدًا، لك أربعة أزواج من العيون، وحراشف على جسدك وشعر على أطرافك، إنهم أكثر من يدين ورجلين، لم أتفرَّغ لِعَدِّهِم! يبدو لي سبع أرجل! أنصِتْ للحقيقة لترتاح، ينقصك قليلٌ من الحقيقة يا أخي.
- آدم: أنت لا شيء! مجرَّد صوت في عقلي المريض الذي أَتْعَبَتْهُ الوِحْدَة، كيف يمكنك رؤيتي دون أن أراك؟! كل شيء واضح!
- السجين: ألم تكن واثقًا من حديثي معك؟! كان ذلك من فترة لن تعرف أبدًا طويلة أم قصيرة؟! ليس هناك زمن في سجن.
- آدم: من أنت؟!
- السجين: أنا سجين مثلك، كلُّنا سجناء يا آدم، لكنِّي

t.me/qurssan

أعرف من أنا على الأقل!

- آدم: أرجوك، سَأُجَنُّ لو لم أعرف!
- السجين: أنا الذي حين عرض الله عليَّ أمانته قلت له لا، لا أستطيع!

* * *

t.me/qurssan

يقف ابنها أمامها طالبًا منها بعض الأموال، تَتَفَرَّسُ (فَتْحِيَّة) ملامحه، له نفس عينيها وشفتيها، لكنَّه لم يأخذ من أبيه شيئًا، كأنَّه ليس ابنه! حملقت أكثر في وجهه وهو مندهش مما تفعله، أمرته أن يَكُفَّ عن التململ، ثم سألته بجديَّة:

- مناخيرك دي واخدها من مين؟!

تَحَسَّس أنفه وهو يضحك:

- اشتريتها من السوبر ماركت! هاتِ الفلوس بقَا، أنا مستعجِ!

خطف الأموال من يدها وهي متسمِّرة في مكانها تتطلَّع إلى أنفه، تَوَدُّ لو تقتلعه بعينها لتتمكَّن من فَحْصِه بهدوء، وما أن تركها حتى أخرجت ألبوم الصُّوَر، وجدت صورة جماعيَّة مع زملائها يتوسَّطها المدير، وضعت صورة ابنها وصورة المدير وظلَّت تقارن بينهما!

- (فَتْحِيَّة)! الأمر خطير! تذكَّري جيِّدًا من أبوه؟!

تصرخ بأعلى صوت لديها، فيُجِيبُها الصَّدَى:

- من؟! من؟! أبوه...! أبوه...! أبوه...!

ثم يسخر ناصحًا لها:

- لن أساعدكِ يا عاهرتي العجوز، سأهمس في أذن

t.me/qurssan

زوجكِ علَّه يعرف فيخبرنا! ولكن لماذا لا تهمسين أنتِ؟!

تعلو همسات (فَتْحِيَّة) في أنحاء البيت حول خيانة زوجها، فيتحمَّل كلماتها المجنونة، لكنه لن يتحمَّل أن تخونه! أن تنطلق زَنَّاتُها مُعْلِنَةً خيانتها له مع المدير، لم تكن تُحَدِّثه، طوال الوقت تحدِّث شبحًا قريبًا!

تغمغم، وغمغماتها تصل إلى أذنيه ليعلم أنَّه زوج أحمق! كم كان مُغَفَّلًا! أخذ يفتِّش في الشقة عن دلائل خيانتهما، لكنَّه لم يجد سوى صورتين على (الكومودينو)، إحداهما للمدير والأخرى لابنه.

* * *

t.me/qurssan

دارَ (آدَم) داخل قفصه يتأمَّل جسده، ويقول:

- لديَّ يدان وقدمان ورأس!

يرقبه (جابر) وهو يضرب كفًّا بكف، ظروف الحبس الانفرادي وظُلْمَة المكان كافية لإصابته بالجنون، هل سيتركه يموت في كل دقيقة؟! هل سيترك ابنه الوحيد يُجَنُّ؟! ألا يكفي أنه مسجون. صرخ (جابر) كاتمًا صرخته بين أسنانه:

- لا أستطيع مخالفة الأوامر، لن أُضيِّعَ عمري من أجل ابن مات!

اقترب (جابر) ببطء حتى وقف أمام (آدَم) الذي لم يصدِّق ما يراه. أخيرًا هذا الإنسان أمامه ثانيةً، التصق (آدَم) بالقضبان دون خوف تلك المرَّة، وهو يتوسَّل إلى الإنسان القوى العظيم في أمر بسيط! فقط يريد مِرْآة، مرآة واحدة ستخبره الحقيقة، وتمسك زمام عقله قبل أن ينطلق بلا رجعة. نظر (جابر) إليه في شفقة وقلق، حاله تدهور للغاية، لن يستطيع أن يرى ابنه الوحيد هزيلًا مُتَّسِخًا ثم مجنونًا! لم يَعُدْ يتحمَّل الوقوف أمامه، ابتعد سريعًا وهو يُخبِره أن ذلك ممنوع منعًا باتًّا.

t.me/qurssan

أخذ (آدَم) يدور ويلف داخل قفصه في غضب، حتى أنهكه التعب، فألقى بجسده إلى الأرضيَّة ونام. استيقظ بعد سُوَيْعَات قليلة، لم يَجِدْ الجردل، تحرَّك سريعًا وحرَّر بوله في أحد الأركان، ليس هناك داعٍ لتعقيد الأمور، خلع ثيابه وجلس عاريًا يحك جسده بقضبان الزنزانة، فقد اكتشف مؤخَّرًا أن تلك الحركة تساعده على تنظيف جسده، وبلسانه أخذ يلعق الأماكن الداخليَّة التي قد لا تصل إليها القضبان بالحك؛ احتال لسانه إلى لون الأشياء حوله، لم يَعُدْ يكترث لطبق الطعام، **هو جائع ويرهقه اللحم الطري الأبيض**، وبالفعل تمكَّن من اصطياد أكثر من ذبابة، كانت وجبة دسمة شهية، أَنْهَى وجبته، وبأظافره الطويلة نظَّف أسنانه السوداء، وبعد أن شعر أن فمه نظيف، تكوَّم في أحد الأركان يهرش في فروة رأسه قاتلًا الحشرات التي تعيش بسلام داخلها، جمعها من بين شِبَاك شعره وذقنه واحتفظ بهم، الآن يضمن وجبة أخرى، لم يَعُدْ يسمع صوت صاحبه منذ آخر مرَّة؛ لم يَعُدْ يفرق معه كثيرًا، فالأوقات تَمُرُّ على كل حال، الوِحْدَة لا تُزْعِجُه.

عَلَتْ حشرجات الحنفيَّة وانطلق الماء؛ لم يستطع (جابر) أن يراه على هذه الصورة، فتح محبس المياه المؤدِّي لزنزانته، فانطلق الماء غزيرًا، لكنَّ (آدَم) لم يتحرَّك من مكانه،

t.me/qurssan

ظلَّ يرقبها بخوف، لا يريد لجسده أن يَبْتَلَّ؛ فصوت الماء يخيفه، جسده نظيف، وكذلك ملابسه، ولا حاجة له بالماء! ظَلَّ الماء يُصْدِر صوتًا لفترة طويلة، عقبها وقوف الباشا أمامه، رَمَقَ (آدَمَ) باشمئزاز؛ فالروائح نفَّاذَة. روث حيوانات، وعرق، وبول، وروائح أخرى لا يمكنه تصنيفها، لكنَّها كانت كافية لتقلب معدة الباشا رأسًا على عقب، وضع يده على أنفه وفمه وهو يقاوم رغبته المِلِحَّة في القيء، وفي النهاية لم يستطِع السيطرة على قَيْئِه الذي انفجر بجوار الزنزانة، لِتَرْتَدَّ عصارة معدته إلى الداخل، ظَلَّتْ عيون (آدَم) مُعَلَّقَة على الباشا وهو يُحَدِّثُ نفسه:

- لماذا يتأمَّلني هذا الإنسان المقرِف بتلك الطريقة؟!

عاوَدَ النظر إلى جسده، لا شيء يستدعي تلك النظرات من صاحب القيء، جسده نظيف! صار (آدَم) غاضبًا من صاحب القيء الذي لَوَّثَ زنزانته النظيفة! زمجر كاشفًا عن أسنانه السوداء التي بَدَتْ كأنياب تَوَدُّ لو تنغرس في لحم الإنسان القَذِر الواقف أمامه، أخرج الباشا سيجارة يخفي بها تَوَتُّرَه، ونَفَثَ دخانها في صمت وهو يتراجع خطوات عن الجنازير، كان (جابر) خلفه غير مُصَدِّقٍ ما يراه، لقد غاب فترة قصيرة عن ابنه، كيف وصل لتلك الحالة؟! كان يرى وحشًا

t.me/qurssan

أمامه، وحش ابنه المظلوم، انصرف الباشا غاضبًا وهو يغمغم: "خسارة"!

بينما ظَلَّ (جابر) واقفًا، وهو يشعر أن القابع داخل القفص قد التهم ابنه للأبد! وقف منهوبًا يفتِّش في خزائنه ويسأل أين ابني؟! أخرج من جيوبه مرآة وألقى بها داخل القفص، ثم هَرْوَلَ خلف الباشا حتى لا يشعر بشيء.

* * *

t.me/qurssan

قال الزوج المغفَّل:

- هل ضاع عمري كله في النهاية؟!

حين عاد إلى البيت فكَّر في استخلاص الحقيقة من (فَتْحِيَّة) بأيَّة طريقة؛ لكنَّها كانت تَزِنُّ في أنحاء البيت، حتى أنَّها لم تنتبه لوجوده، يسألها فلا تَرُدُّ، كأنَّها لا تراه! ظَلَّ يتأمَّلها، صارت هيكلًا عظميًّا، لا يعرف حقًّا تلك التي تجُوب البيت ذهابًا وإيابًا، كذبابة تحوم مُشْرَئِبَّة الأجنحة، إنَّها لا تُشْبِهُ (فَتْحِيَّة) في شيء، كيف يقتل ذبابة ويَدَّعِي أنه قتل زوجته الخائنة؟! كيف يقتلها دون أن يعرف؟! وما يودُّ معرفته ساكن داخل عقلها الخَرِب، ومكاتب المصنع عند الباشا المدير. قرَّر مراقبتها في النهاية؛ سينطلق خلفها منذ خروجها من المنزل حتى وصولها للمصنع، ثم يَظَلُّ هناك حتى تخرج، دون أن يلاحظه أفراد الأمن حتى يحفظ شيئًا من كرامته. وبالفعل؛ ظلَّت خطواته تجثو فوق خطواتها، لم تكن تذهب إلى أي مكان بعد العمل، كانت تنطلق إلى البيت مباشرة، لكنَّ ذلك لم يَنْفِ عنها التهمة، من يَضْمَن ما تفعله مع المدير داخل المكاتب المغلَقَة؟! فقد أعصابه، ووَدَّ لو استطاع الدخول وسؤال الجميع عمَّا يحدث في الداخل، لكنَّها ستكون فضيحة:

t.me/qurssan

- هل لزوجتي علاقة بالمدير؟!

لماذا لا يأتي الموت ليريحنا من الأسئلة؟! هل أنا زوج مغفل؟!

بكى وهو يراقب (فَتْحِيَّة) أيَّامًا كثيرة، حتى أرهقته الحياة واللاجدوى، فتوقَّف في منتصف الطريق، ونادَى عليها بأعلى صوت:

- (فَتْحِيَّة)، أنتِ طالق!

ابتلعت (فَتْحِيَّة) كلمته دون أن تُعَقِّبَ، أكملت طريقها في استسلام:

- هل طلقني بالفعل؟!

لم تعرف الإجابة، لكنَّها شعرت أَنْ ليس لها مكان في البيت، لا بُدَّ أن تَجِدَ مكانًا آخر تَبِيت فيه الليلة. حين وصلت إلى المكتب فتَّشَت في شنطتها عن أموال، فلم تجد ما يكفي لاستئجار حجرة في فندق، تأمَّلت المكتب، إنَّه واسع! فآدم قد تم فَصْلُه نهائيًّا، و(نُهَى) في إجازة الآن لتستعِدَّ للزواج، نظرت إلى الأصيص بتوجُّس: الورد ذابل! وقفت متعجِّبة ترمق النوافذ المغلقة، ثم بصقت على الأصيص وهي تغمغم:

- حلال فيكِ الجزم!

t.me/qurssan

* * *

t.me/qurssan

أمسك (آدَم) بالمرآة بلهفة جنونيَّة، لكنَّه أغمض عينيْه:

- مرآة تصنع جسدي! مرآة تصنع المعجزات! لكنَّني بلا معجزة، شيخي مُحِقٌّ!

ابتلع ريقه المرّ وألقى بالمرآة بعيدًا، رفع رأسه للأعلى فرأى عنكبوته؛ غريمه المراوغ. ربما ظَلَّ فوقه طوال الوقت دون أن يشعر، كان فوق رأسه تمامًا، تحرك (آدَم) للخلف بِحَذَرٍ حتى استوى على ظهره فوق السرير، العنكبوت يبدو أكبر حجمًا أو هكذا رآه، كان يرى أسفل بطنه بيضاء لامعة وكذلك جذور أرجله واضحة، بدا له أكبر منه شخصيًّا، يكاد يُطْبِقُ على صدره، استطاع أن يرى عضوه رَأْيَ العين دون تدقيق أو ميكروسكوب، نظر (آدَم) إلى أسفل جسده، دمدم:

- كان لديهم حق، البطاقة كاذبة!

سأل نفسه عن الفرق بين الرجل والمرأة. لم يتزوَّج بعد؛ لكنَّه يعرف بالتأكيد، فالأمر لا يحتاج، ربما الفارق الوحيد هو ذلك الاستيقاظ الجامح المرئي دون الحاجة لتدقيق أو ميكروسكوب. دَقَّق في جسده النائم بينما يتردَّد على مسامعه صوت صاحبه وهو يقول:

t.me/qurssan

- أنا الذي حين عرض الله عليَّ أمانته قلت له لا!

لماذا تردَّدت تلك الجملة على أذنه في هذا الوقت بالذات وهو يقع أسفل وحش ضخم قد يفتك به في أيَّة لحظة؟!

- أنا الذي حين عرض الله علَّي أمانته قلت...!

صوت السجين القريب منه، الصوت الذي رأى عُرْيَه وهَزَّ كيانه، شعر (آدَم) أن الصوت يجلجل حوله بالفعل، وليس في رأسه فقط. الصدى يتردَّد حوله ويخيفه، رخيمًا كأنَّه يخرج من أحشاء جسد بلا فَمٍ! نظر (آدَم) فوقه غير مصدِّق نفسه! فتح فمه عن آخره حين أدرك مصدر الصوت!

- كنت أحدِّث عنكبوتًا طوال الوقت! وبِلُغَةٍ واحدة لم يثبت إلى الآن أنَّها لغة البشر! أنا الذي قلت لا!

* * *

t.me/qurssan

حجرة المكتب صارت عشًا كبيرًا داكنًا، تأكدتُ من إحكام غلق نوافذها. الذباب يؤنس وحدتي ويؤرقني. لا أعلم من أين يدلف إلى حجرتي الواسعة! يزن ويعلو صوته.... " كم أنتِ وحيدة للغاية يا (فَتْحِيَّة)... والمدير وحيد أيضًا!".

لا أريدُ أن أسمعه! أفشل في إبعاده! أبكي، وأطير نحو المدير، لا بُدَّ من سؤاله هل هناك شيء بيني وبينك؟! قد يغضب ويطردني، وأنا لا أستطيع الاستغناء عن عُشِّي الجميل، الذبابات الحائرات تضايقني، لا أنكر ذلك لكنَّني سأتحمَّل. ما لا أتحمَّله بالفعل أن أصبح مِلْكًا للشارع، ماذا لو استغل المدير سؤالي ونظر إليَّ نظرة ذات معنى؛ ليفعل الآن ما لم يفعله قديمًا؟! ارتجف جسدي، لكنِّي انطلقت غير مبالية بالعواقب، فكلامه حتى وإن لم يكن الحقيقة سيمنحني بعض الوقت لأنام، لماذا لا يتركني الذباب لأنام قليلًا؟!

اقتحمَتُ غرفته بعد أن أَزَحْتُ السكرتيرة عن طريقي، ابتسم حين وجدني أمامه كمن يبتسم لطفل تائه، سألني عما أريد؟! لكنِّي لم أجد الكلمات المناسبة، كيف أتخلَّص من الحرج وأسأله؟! نظرت إلى عينيه الواسعتين، يجلس غير مبالٍ للفوضى التي تموج داخلي، مستريحًا على كرسيه كملك متوَّج. حاولت

t.me/qurssan

أن أتكلَّم، فخرجت مني بضع غمغمات بعد مجهود كبير:

- أنا (فَتْحِيَّة)، لا أعلم معنى هذا الاسم السخيف، لكنَّه اسمي، أنا البدينة التي استلمت العمل في قسم شُؤُون العاملين، والجميلة حين ادَّعَيْتُ كذبًا أنَّك تحبُّني، والعاهرة حين أصدرتَ قرارَكَ بنقل زوجي، هل تعمَّدْتَ أن تهشَّني من أمامك عقابًا لجرأتي على الادِّعاء؟! أنا أصغر من أن تراني، أليس كذلك؟! هل أصدرت قرارك مصادفة؟! أنا البدينة لأنك تحب البدينات! والنحيلة لأنك لم تَعُدْ تحب البدينات! أعرف جيِّدًا ملمس تلك الكنبة الغالية، ملمسها الناعم على الجسد العاري المرتجف، أراني عليها كل يوم في عيون الموظفين، أسمعهم وهم يهمسون، والكارثة أنَّني أجهل الحقيقة! والحقيقة ليس لها سوى وجه واحد وحيد، الحقيقة ملك يمينك يا سيدي! ولا قوَّة لي بسؤالك، من أنا لأقتحم مكتبك الضخم الذي يسع الآلاف مِنِّي؟! أنا البدينة والنحيلة! الجميلة والقبيحة! الشريفة والعاهرة! ليس هناك أي مجال للشك أنا العاهرة!

لم يسمع شيئًا مما قُلْتُه؛ فقد كان مشغولًا ببعض

t.me/qurssan

الأوراق، نظر إليَّ بنفاذ صبر:

– عايزة حاجة يا مدام (فَتْحِيَّة)؟ أنا مش فاضي لك.

وقفْتُ في استسلام! خلعت ثيابي ببطء مُلْقِيَةً بها على الأرضيَّة حتى صرتُ عارية تمامًا أمامه، ابتلعْتُ دموعي بينما اتَّسعت ابتسامته، التهم جسدي النحيف الذي يشع بياضًا بنظرته النَّهِمَة المتفحِّصة، تراجع بكرسيِّه للخلف وهو يضع ساقًا على الأخرى، ثم أشار لي لأقترب بعد أن أزاح الأوراق عن المكتب، تحركت بخُطى مرتعشة، والذبابات تبتسم لي وتشجِّعني بعد أن كفَّت عن الضوضاء القاتلة، ابتسمْتُ لهدوئهن المريح، غَمَزَتْ لي فتاتي العاهرة وهي تمضغ لبانة بابتذال، كانت تتَّكِئ على الكنبة في وداعة سعيدة بعُرْيِها اللامع، منذ دخولي إلى الحجرة وهي على هذه الوضعيَّة، لكنَّها أشارت لي إشارة الوداع وهي ترحل عن عالمي تاركة لي الفراش خاليًا. تنفَّسَتْ ابتسامتي الهواء المقطر بالماء، لا بُدَّ أنها ذرات عطره الأنيق، يمكنني أن أنام أخيرًا، اقتربتْ أكثر وأنا أسمعني أردِّد بصوت مبحوح:

– هَيْتَ لك!

* * *

t.me/qurssan

قال الزوج المغفَّل:

- هل ضاع عمري كلُّه دون أن أعرف الحقيقة؟!

والحقيقة تأخذه إلى مكتب المدير، يعرف من السكرتيرة أن (فَتْحِيَّة) بالداخل، يغافلها ويقتحم الحجرة بلا استئذان؛ فلا يجد أحدًا! هل أخذها إلى شقته؟! كل ما وجده ذبابتين ملتصقتين، قال:

- لو قتلتهما هل سأشعر أني قتلت زوجتي وعشيقها؟!

لكنَّه تراجع عن الفكرة وابتسم لصفائهما الذي لا يعكِّره شيء، وقال محدِّثًا نفسه:

- يا لها من حشرات!

سمع صوت السكرتيرة وهي تدلف إلى المكتب، فلم يشعر بنفسه وهو يفرد جناحيه ويطير!

* * *

t.me/qurssan

كل شيء يمكن حَلُّه بتغيير بسيط، سَأَخِفُّ وأتضاءل قليلًا، لا أحتاج لمعجزة، سأغيِّر إيقاعي فأطير عن الأرض متخلِّيًا عن جسدي المؤقَّت، لن أبقى في السجن للأبد، ولن أحمل على كتفي وجع الحياة، الحياة بسيطة، لم يبقَ لي سوى البحث عن أنثى تُعجَب بي وأنجب منها أولادًا، وسأتركهم بَيْضًا وأذهب لأنثى أخرى مثل صديقي، نحن أنانيُّون وهذه فطرتنا، نظرْتُ إلى أرجلي السبع ودمدمْتُ بحزن:

– أين ذهبت الثامنة؟! كيف فقدتها؟!

تحرَّكْتُ خفيف الخطوات على أرض الزنزانة، أرمي خيوطي مبتعدًا عن قذارة الأرضيَّة، أرى نفسي جَنِينًا داخل كَلَس البيض، مُحَاطًا بأرجل أمِّي، أصرخ من انبعاج حراشفي وتشكُّلها، وافتراش الشعيرات السوداوات عليها، مفاصل أقدامي التي تعظَّمَتْ في كامل وعْيِي، مصانع الحرير الغنيَّة بإفرازاتي اللَّزجة الشهيَّة، رائحة أمي التي تحيط به وتطمئنني كَذِبًا أنها تحرسني، أنا (آدم)، لم أنتقل لجسد آخر! فأنا بلا معجزة! كل الأمر أنَّني لم أكن بشريًّا يومًا ما، كل شيء واقعي! الزنزانة التي تشبه القفص، الجميلات اللاتي لا أتذكرهن، رفيق الزنزانة الذي أخبرني الحقيقة، الأمر واضح الآن! لقد خَرَجْتُ من

t.me/qurssan

البيضة، ولسوء حظِّي لم أجد أمي! فلم أعرف من أنا! واستوقفني بعض البشر الطائشين، وكعادتهم يظنُّون أنهم استثناء، هُمْ طموحون ويعشقون المغامرة، تلك المغامرة الخطرة التي لم يَقْبَلُها غيرهم، قالوا: نعم! وتركونا وحدنا لنقول: لا! ربما هم ليسوا سوى حمقَى متهوِّرين، لكنَّ تهوُّرهم يستحِقُّ بعض الشرف والكرامة، لم أشعر يومًا بالكرامة، لو قلت نعم؛ لصرت مثلهم، لكنَّني أصغر من فراشة، فمَنْ أنا لأقول نعم؟! ومن أنا لأقول لا؟! لا أتذكَّر ما قلته، **فأنا جائع الآن ويرهقني اللحم الطري الأبيض! أُصغِي إلى جسدي الذي يبكي من جوع قاتل، أنتِ لي أيَّتها الحلوة الكريهة، أشتاق إليك حَدَّ الموت.** ما أجمل أرجلها الثماني الرشيقة ورائحتها الجذَّابة! أنثى تَهُزُّ شِبَاكها حين أَقْتَرِبُ منها، وتستجيب لحركاتي التي أَستعرض بها فحولتي! أنا (آدَم)! قد أكون الأوَّل، ولكنِّي لن أكون الأخير، فحوَّاء تنتظرني، تَتَّكِئُ على شبكتها، وتطلق عطرها الأنثوي، سأنجب منها آدمِيِّين كثيرين لهم نفس هيئتي، أبنائي أبناءُ (آدَم) دون أدنى شكٍّ، أنت مُحِقٌّ يا شيخي، للأنبياء المعجزات، وأنا لست نبيًّا، أنا مُثْقَلٌ بخطيئة الجميع! وهذا قدري الأبَدِيّ! انطلقتُ خارج الزنزانة، وتحيَّنْتُ الفرصة لأرى القفص من الخارج، ثم تَمْتَمْتُ:

t.me/qurssan

- لقد كان قفصًا جيِّدًا للعيش على كل حال.

تردَّدتُ قليلًا لكنَّني قاومت ما يعتريني، وألقيْتُ بخيوطي محاولًا الابتعاد قدر المستطاع، حتى لا أُغَيِّر رأيي، صرخت في الوجود:

- أعرف من أنا! الآن أنا حُرٌّ!

* * *

t.me/qurssan

وقف (جابر) يقلِّب كفَّيْه على الزنزانة الخالية أمامه، اختفى (آدَم) تاركًا كل شيء على حاله حتى ملابسه، هل هرب عاريًا؟! لم تَعُدْ قدماه تحملانه؛ سَتُوَجَّهُ إليه الاتهامات بالطبع، ولن تشفع له سنوات عمره التي أضاعها في خدمتهم، فهو المسؤُول الأول عن هذا السجين؛ سيحاكم محاكمة عسكريَّة، سيجلس القاضي على كرسيِّه مرتاحًا ناظرًا إلى (جابر) بقرف وتعالٍ:

- اسمك وسنك وعنوانك؟
- (جابر).
- اسمك بالكامل يا متهم.
- الأسماء اللي بعد كده مافيهاش اسم مميَّز، شبه أسامي ناس كتير!
- إنت جاي تهزر؟!

يمسك القاضي بالملفات بعد أن منع نفسه من سُبَّة محقَّقة كانت ستلتصق بجابرُ قطَّب حاجبيه وهو يقرأ من ملف المتهم، إن المدعو (آدَم) متهم بِعِدَّة تُهَم، منها تعطيل كمين لمدة ساعتين عن أداء مهمته، تعكير المزاج العام للسجن؛ حيث تعالت صيحاته في الآونة الأخيرة، الدعاء أثناء الصلاة على

t.me/qurssan

مديره بألفاظ لا تليق مِمَّا تسبَّب في أذى نفسي بالغ للمصلِّين بجواره، السير في الشارع في ساعة متأخِّرة، إلى جانب أنه بلا هُوِيَّة، وأنت تعرف أَنَّها مسألة خطيرة، والمشاركة في تهريبه يُعْتَبَر تَوَرُّطًا في التُّهَم المنسوبة إليه؛ لأنك بذلك تخالف نص القانون، وإذا كنت تؤمن ببراءته فتلك جريمة أكبر؛ لأنك بذلك تُحَرِّضُ الشأن العام على عِصْيَان القانون؛ ما قولك في المنسوب إليك؟

– أَتَفَهَّمُ الوضع سيدي القاضي، بس أنا ماهرَّبْتُوش.

كشَّر القاضي حانقًا، ثم أشار للحاجب لينادي على الشهود بعد أن سَئِمَ الحديث إلى (جابر)، ارتفع صوت الحاجب:

– السجان (عبد الصمد).

دخل (عبد الصمد)؛ وأقسم قبل أن يسأله القاضي، ثم أوضح أن (جابرًا) كان يعاني من بعض الاضطرابات في الآونة الأخيرة؛ حيث خُيِّل إليه أن (آدَم) السجين هو ابنه، وبالتأكيد كان غير واعٍ وهو يقوم بتهريبه.

ابتسم (جابر)؛ فقد أراحت الشهادة قلبه، رغم أَنَّها تحمل اعترافًا ضِمْنِيًّا بتهمته، لكِنْ لا بأس بذلك، فلن يُصَدِّقَ أحد على أيَّة حال أنه اختفى، ثم أضاف (جابر) في الوقت

t.me/qurssan

المناسب:

- (متولي) كان معايا يوميها، وحضر كل حاجة، ممكن تسأله يا سعادة القاضي.

أكَّد (متولي) صدق زميله، وأخذ يَصِف حالة (جابر) وقتها وكيف فَقَدَ أعصابه، لكنَّه توقَّف فجأة طالبًا من (جابر) أن يسامحه، فلا بُدَّ أن يقول الحقيقة كاملة، رَمَقَهُ (جابر) بتَرَقُّبٍ:

- ماذا تعني الحقيقة الكاملة؟!

فقد حكى (متولي) كل شيء بالتفصيل؛ أوضح (متولي) أنه أقرب أصدقائه إليه، مِمَّا مَكَّنه من معرفة أشياء لا يعرفها كثيرون، فجابر كان على خلاف دائم مع ابنه، وإذا كان ابن المتهم على خلاف دائم مع أبيه ووصلت الأمور بينهما إلى حدِّ الكراهية، فلا بُدَّ أَنَّ (جابرًا) أيضًا كان يبادله الشعور ذاته، فالكُرْهُ توأم الحب، ومن هنا تُحِيلُنا القصة إلى شيء آخر؛ (جابر) العارف تمامًا بالقانون قد افتعل تلك القصة ليقوم بتهريب السجين مُدَّعِيًا الصدمة النفسيَّة، وخصوصًا أن (آدَم) لا يشبه ابنه مطلقًا، ثم أوضح أنه لا يريد أن يَظْلِمَه، فالله يشهد مدى محبَّتهم، لَكِنَّ الوطن فوق الجميع!

t.me/qurssan

ابتسم القاضي لأول مرَّة منذ بِدْء المحَاكَمَة، وسط ذهول (جابر) الذي لم يتمالك نفسه، وتحرَّك لينقض على (متولي)، لكنَّ الكلبشات الموضوعة في يديه جعلته كالمسمار المدقوق في الأرض، لا يستطيع التحرُّك رغم جنون الضربات المتوالية فوق رأسه.

ابتسم (عبد الصمد)، واقترب أكثر من الدائرة التي تُنسَج بدِقَّة حول (جابر)، مُبَيِّنًا أنه قد نسى أمرًا مهمًّا، لقد رأى (جابرًا) يعطي المتهم شيئًا لامعًا قبل هروبه بيومين، لكنَّه لم يَظُنّ وقتها أنها قد تكون نسخة من المفتاح، وذلك يفسر وجود الزنزانة مُغْلَقَة وقت اكتشاف الأمر.

بدا الارتباك على (جابر) واضحًا للجميع، ومُؤَكِّدًا التهمة المنسوبة إليه.

سأله القاضي بلهجة آمِرَة:

- إنت ادِّيتُه المفتاح؟
- لأ، دى مراية أقسم بالله، طلبها مِنِّي؛ فاديتهاله! دي كل الحكاية.

التصق (جابر) بالقضبان يسأل نفسه:

t.me/qurssan

- هل أعطيته المفتاح ولم أنتبه؟! هل حرَّرت ابني الوحيد وضيَّعته للأبد؟!

تمتم القاضي بسخرية:

- وطلب منك إيه كمان؟! واضح! واضح!

دخل الباشا طالبًا أن يُدْلِي بكلمته، أَوْمَأَ له القاضي بالموافقة، لم يُقْسِمْ ودخل في صلب الموضوع مباشرة، أخذ يمدَح في إخلاص وولاء كلبه الوديع موضِّحًا صِدْقَهُ، فقد عَثَرَ على مرآة صغيرة داخل القفص، أمَّا بالنسبة لكراهيته لابنه فإنه ادِّعاء لا دليل عليه، كيف نَتَّهِمُ أبًا أنه لا يحب ابنه بتلك الطريقة دون وجود دليل قاطع؟!

- وعشان ما اطوِّلش عليكم فزوجة المتهم لازم تتكلم في النقطة دي.

ابتسم الباشا لجابر) بخُبْث، وامرأته تتحرَّك مسرعة لتدخل ساحة المحكمة، نظر (جابر) إلى زوجته بلهفة رضيع نحو أمِّه التي تملك حياته، لو لم تخبرهم أنه يحب ابنه؛ ففي أسوإِ الظروف ستخبرهم بكلماتها الحادَّة أنه طوال حياته كلبهم المطيع؛ لم يكن ليفعل شيئًا يُذْكَر حتى لو كان ابنه داخل القفص بالفعل! وأن إخلاصه في العمل أَهَمُّ من أي شخص أو

t.me/qurssan

شيء آخر، فَلْتَصُب حنقها عليه، إنه راضٍ الآن، ولن يغضب منها كما كان يفعل قديمًا، كم يشتاق إلى تلك الكلمات التي تُقَرِّعُه بها كُلَّما اصطدمت به في طريقها، لن يغضب ولن تثور ثائرته، وقد تصنع معروفًا في شريك حياتها وتخبرهم كم كان يحب ابنه! كل خلافاتهما كانت خلافات عاديَّة تحدث بين الآباء وأبنائهم، فللأبوة سَطْوَة وضعف. وقفت زوجته تتأمَّل هيئته التي يُرْثَى لها؛ كانت ملابسه مُتَّسِخَة، ورائحته لا تُطَاق، ووجهه شاحبًا مرهقًا من قِلَّة النوم. نظر إليها بصبر نافذ وإلحاح ينتظر الكلمات التي ستخرج من شفتيها، لَعَقَتْ وجهه بعينيها نظرة انتصار وسخرية، بينما انكمش أنفها من الرائحة، وبَدَا على ملامحها القرف والاحتقار! تراجعت خطوات قليلة للخلف لِتُقَلِّل من أثر الرائحة، وقتها شعر بالقضبان التي تنغرس في لحمه وتَدُقُّه في الأرض حيث لا يملك سوى الصراخ، صرخ بأعلى صوته، فأجابته الزنزانة الخالية أمامه بعد أن أنهت مُحَاكَمَتَه المتخَيَّلَة وأزاحت القاضي والشهود عن عينيه:

– أنا خالية تمامًا يا سجَّاني المطيع وأنت تدرك مصيرك! فأنْصِتْ للأوامر يا (جابر)!

انتبه إلى عيني زوجته التي بقيت حوله في كل مكان، وربما لن تفارقه للأبد، هرب ابنه منه ثانية بعد أن عثر عليه،

t.me/qurssan

اليوم يفارقه ويموت مرَّة أخرى، يصفعه على وجهه ويسخر من تحكُّماته وغبائه:

- أبوك كلب الباشا ينصت للأوامر يا ولدي! لكنَّه أخرجك في النهاية، ونجح بصورة كاملة في أن يُضَيِّعَك! ومن الممكن أن يكون الباشا هو من أخرجك؛ ليقتل كلبه الوديع بطلقة واحدة!

ارتعشت أصابعه وهو يمسك بالمفتاح، يحاول أن يستجمع قوَّته ليفتح الزنزانة وسط نداءاته لابنه الذي لا يُرَدُّ، تحرَّك خطوات بطيئة مُرْتَعِشَة إلى الداخل، خلع ثيابه حتى صار عاريًا، والتقط ثياب (آدَم) يَشْتَمُّ القميص ويُقَرِّبُه من أنفه؛ ليملأ صدره به، ثم فتَّش في ثناياه قبل أن يرتديه، فوجد ثُقْبًا صغيرًا أسفل أحد الذراعين؛ كيف أهملت امرأته قميص ابنه الذي لا يُدْعَي (آدَم) بهذه الطريقة؟! ارتدى الثياب كاملة وأغلق باب الزنزانة عليه، ثم أغلق الجنازير وتأكَّد من إحكام غلقها، وألقى المفتاح بكل عزم لديه ليستقر داخل بقعة الضوء الثابتة المقِيتَة، ظلَّت عيناه معلقتين بالمفتاح فترة قبل أن يسحبه ظِلٌّ يتحرك خلف بقعة الضوء، لم يستطع أن يحدِّد هُوِيَّة الشخص القابع خلف الضوء، وقتها انفجر نشيجه المكتوم، فبدا كدندنة نابعة من جسده المتكوِّم في المسافة بين القضبان

t.me/qurssan

والسرير، وهي المسافة التي لا تكفيه إذا فكَّر في فرد رجليه، سأل نفسه هل الزنزانة ضيِّقة؟! أَمْ أنه أطول من المعتاد؟!

* * *

t.me/qurssan

بحثتُ كثيرًا عنك يا حبيبي ولم أجدك، ربما لم تكن موجودًا منذ البداية، وما أنت سوى صدى الصحراء داخلي، والصحراء تَحِنُّ لِسَيْلِها الذي يَغِيب طويلًا، فلا تراه إلا لمامًا، وأنا لن أراك يا صغيري ثانية، فالوحيدون حالمون، ولسوء حَظِّي حَلُمْتُ بك، ولم أحلم برَجِلٍ وسيم يشاركني صقيع جسدي، وبعد انقشاعك صارت الموافقة على الزواج أسهل، الزواج الذي حلمت به كثيرًا يتحقَّق، زغاريد وغريب أكاد أعرفه، ليتني ما حلمت!

الليلة هي الأولى التي سيرى الغريب جسدي الذي أحفظه عن ظهر قلب، وأَكْرَهُه عن ظهر قلب، سأرتدي اليوم جسد امرأة فاتنة مُصْطَنَعَة؛ باروكة ومكياج! لتشاركني يا غريب مفاتن سجني اللعين، سأرتديك كامرأة جامحة وأنا أقود الرقصة كي لا تنتبه، سأطفئ الأنوار كي لا ترى، لا أريد عينيك في المكان، ففي الظلام يمكنني أن أُحَلِّق، ويمكنك التمتُّع بقبحي الجامح الأسود! لم تكن بطلة الفيلم سمراء، ارتديت وجه البطلة ورسمت خطواتها، داخلي يرتجف، لكنَّني أعدَدْتُ وجهي بحذر، وجَذَبْتُه من رابطة عنقه لألقي به على سريري، البطلة شقراء، أطفأت الأنوار، الآن لا فرق بيننا!

t.me/qurssan

ما الخطوة القادمة؟! ما الذي فعلته الشقراء بعد ذلك؟! هل خلعت ملابسها؟! أم خلعت ملابسه؟!

المشهدان أمامي الآن، رَتَّبْتُ الكلمات والحركات، لكنَّ الكلمة التي تخرج من امرأة جميلة لا تشبه نفس الكلمة حين تخرج من رجل! ولد يشبه أباه! وإذا كان الولد يشبه أباه فما ظلم، من قال لكِ يا أمي أنَّني بنت؟! انتبهتُ إلى الغريب الذي يتململ في جواري، كنتُ ساكنةً بين يديه؛ ما المشكلة لو كنت بنتًا؟! بنْت تشبه والدها القبيح، وذلك يحدث بصورة مستمرَّة، فأمي امرأة شريفة، وإذا لم أشبهها بالتأكيد سأشبهه، ضحكتُ محاولة الإمساك بالإيقاع الذي يُفْلِت من يدي، ستتَمَدَّد فوقي وتبكي من شبق عميق، وستحترق، لكنَّ نارك ستنطفئ في الصبح القريب، وستخبر أمك أن امرأتك صلعاء؛ وستخبر أمُّك الجيران، وسيتحدثون طويلًا ويصمتون عن جدائلي الليليَّة المخبَّأة ليُضاف لي لقب جديد. أين أنت يا حبيبي المنقرش؟! كم كنت سعيدة معك! على الأقل تحفظ سرِّي! لا أريد للصبح أن يأتي، ولا أريد أن أبكي الآن؟! أمسك الغريب بزمام الأمور، يُقَلِّب جثَّتي بين يديه، وأنا أخفي جسدي كي لا يرى انبعاجاته، وكرة القدم المترهِّلة في بطني، تحسَّست الباروكة لأتأكَّد من ثباتها، والأصوات تعلو في أذني،

t.me/qurssan

حيث تفترش جاراتي رأسي العاري وتتكلَّم.

- بس الجواز مهم بردك!
- ممكن أَطَّلق بس أهو صادِد عَنِّي ولاد الكلب!
- أهو على الأقل طِلِعْتي منه بعيِّل، شويَّة وَنَس.
- مهم في إيه بلا خيبة!
- (نُهَى) جالها عريس.
- ما هو كل عيِّل هيروح لحاله، وهَفْضَل وِشِّي في وشُّه في الآخر!
- العريس اللي متقدِّم لها مطلق وعنده ولد!
- اللي جرب الجواز غير اللي مجربش!
- اللي بيطلق مرة بيطلق عشرة!
- بيقولوا مراته الأولانية جميلة، ومن بعد الجميلة ياخد (نُهَى) ليه؟!
- هُمَّ العيال حاجة عِدْلَة! بَلَا هَمّ!
- الوَنس مش بالراجل والعيال.
- ضِلّ حيطة ولا ضِلّ راجل!
- يعني كلب يصد عنك ولاد الكلب!
- أهو ياخدك في حضنه آخر الليل.
- كفاية عليه يحضن المخدة!

t.me/qurssan

- أكيد عريس (نُهَى) فيه إِنَّ!
- عادي يا سِتِّي، هُمَّ يعني الوحشين مالهمش حظ؟!
- لا، ليهم ونص، ده حظهم أحسن من الحلوين كمان!
- العيال في الآخر بعد ما نستحمل عشانهم مابيسألوش فينا!
- يعني هو الراجل جاي شيطاني؟! ما هو وراه أم وأخت.
- أجارك الله والستات! ما الستات ولاد كلب بردك!
- أنا قولت حاجة؟!
- لا، بس الجواز مهم!

سقطت باروكتي وسط هزاته، للأسف لم أعد أنتظر أحدًا ولا شيئًا يا غريبي، ولا أمل لي في مفاجأة منكَ، ولا أنتظر أن تخضر صحرائي بين يديك، فقد اعتدت الخريف، لا أشعر بشيء وأنت في أوج موتك، ستموت عطشانَ، لا أحد يطيق الصحراء دهرًا، والصحراء أيضًا لا تُطِيق أحدًا، ألَا تعرف أن الصحراء لا تحب الغرباء؟! هذه هُوِيَّتُها القاسية، وها أنا أشم دمك المرتبك في عروقك، **أنا جائعة ويرهقني اللحم الطري الأبيض!** لو لم تَفِرّ الآن يا غريبي؛ ستدفع الثمن غاليًا؛ ستموت في مائك الدافق!

t.me/qurssan

ارتفع صوت في مدى الليل الأصفر اللانهائي، صوت تعرفه الصحراء جيِّدًا. فهي عمياء لكنَّها لا تخطِئ ساكنيها:

- انظري إلى جسدكِ! أنتِ صلعاء لأنه ليس هناك من أبناء جنسك من لهم شعر غزير، ونحيفة لأنها طبيعة جسدك الدائري المسحوب، وعانس لأنه لم يأتِ وقت التزاوج بعد، البشري يا حبيبتى سيطالبكِ بالمستحيل ليرضى، ولن يرضى! انظري إليَّ! أنا (آدَم)! حبيبك المنقرش الكامن داخلكِ، كل شيء واقِعِيٌّ يا حوَّاء ومنطقي الآن!

صرختُ؛ وخرج صوتي مبحوحًا؛ يحاول أن يوقف الزلزال، لماذا لم تأتِ أمي لتدثِّرني؟! تركوني للغريب الغبي! ابتسم فرحًا برجولته التي تثبتها صرخاتي المتقطعة، لكن صرخاتي لم تصمت، وتحوَّلت إلى نشيج، هَمَّ من نومته وأضاء النور ليعرف ما بي؛ رمق صحرائي البراح وبين طيَّات ملامحه قلق وفزع، أرعبني النور الذي يبرق في عيني، بادلته نظرة أكثر فَزَعًا وأنا أراه مُغَطًّى بخيوط بيضاء لزجة، وضعت يدي داخل فمي، فإذا بالخيوط تنساب منه! انطلق هاربًا بأقصى سرعة لديه، تحسَّست جسدي الأسود اللامع ذا الشعيرات الساحرة، وتمتمت:

t.me/qurssan

- لا أحد يطيق الصحراء! أعرف من أنا، أنا الآن حُرَّة!

* * *

t.me/qurssan

قالت زوجة (جابر):

- هل ضاع عمري دون أن أعرف أين سجاني؟!

ظَلَّت تنعق طوال الطريق لغياب زوجها، كلمات (متولي) تتردَّد في أذنها:

- منعرفش عنه حاجة، نفسيِّته كانت تعبانة الفترة اللي فاتت، معرفش إيه اللي جَدّ، طول عمرنا بنمسك شويَّة عيال تحرِّي؛ ونخرَّج اللي معلهومش حاجة، حتى الباشا زعلان منه، شكله طَفَش ومستحملش، كل اللي لقيناه بدلته، معرفش إيه اللي خلَّاه يقلع الميري!

ترفع صوتها ويصل نعيقها إلى الزنازين دون أن تسمع ردًّا، تقول:

- كم صرت وحيدة يا سجَّاني! لم تكن رحيمًا معي يا (جابر)!

بَهَتَ صوتها وأرهقها الحزن، فمكثت في عُشِّها الصغير تنتظر أن يأتي سجَّانها ويفتح الباب. الليل ثقيل على الوحيدين، ولا شيء يقتل الوقت، أخذت تفتِّش في ملابس (جابر) حتى عثرت على ثقب تحت أحد الذراعين في بذلته

t.me/qurssan

العسكرية، سألت نفسها:

- كيف لم ألحظه من قبل؟!

ثم وضعت منقارها داخل الثقب لِتَسُدَّه بالخيوط الحريريَّة!

* * *

t.me/qurssan

اعتاد زوجي صلعتي الناصعة، واعتدْتُ أيضًا اللقب الجديد "مدام نُهَى"، اللقب الجديد لم يُسكتهم، يمصمصون شفاههم ويتساءلون:

- كيف تزوَّجها؟!

فكَّر بالفعل في التخلُّص مِنِّي، لكنَّ لِلَّيْلَة الأولى سحرها الخاص، والسحر يقذف في رحمي جزءًا منه، جزء صغير بلا ملامح لكنَّه كافٍ لجعله يتراجع: "المدام حامل"، لأوَّل مرَّة يخبرني الطبيب بنبإٍ سعيد! تسير الليالي بطيئة ونعتاد كل شيء، أحمل باروكتي على كتفي وانتظر خروجه لأتحرَّر قليلًا. يجلس على القهوة ويدخِّن بشراهة وهو يحاول أن ينسى أنه قد خُدع، وأن حظَّه أسوأ من الجميع، يغضب ويلعن حظَّه الأسود، ثم يعود إلى المنزل ليُخرِج زعيقه المكتوم في رحمي الممتلئ؛ فيهدأ قليلًا حين يحس برجولته، تنتفخ بطني يومًا بعد يوم، أشعر أنها مئات مئات الأجنة الصغيرة السوداء، لكنَّ الطبيب لم يتفرَّغ لِعَدِّهِم! ولم يخبرني هل ستشبهني أم ستشبه أباها الذي لم يكن قبيحًا للغاية؟!

أنطلقُ كل يوم إلى المصنع حيث الحجرة الخانقة، والتي صارت أكثر ضِيقًا بعد عودة (آدم)، عرفنا جميعًا أنه كان

t.me/qurssan

مُحتجَزًا وعندما تأكَّدوا من براءته أخلوا سبيله، صرت أتجنَّب النظر إلي عينيه الحالمتين، وصرتُ أعرف أيضًا أنه هو، هو منذ البداية، منذ ناداني بحوَّاء، ليتني تركته يهلَك تحت شبشب (فَتْحِيَّة)؛ فجسده المنقرش يرهقني، ألملم بلوزتي وأتأكَّد من إحكام غلقها، أغلق الكُمَّ جيِّدًا كي لا يتسرب بأرجله السَّبع داخلي. يكفي ما حدث! أنا امرأة متزوِّجة الآن، ربما أنا الوحيدة التي أراه هكذا من بين الجميع، هو أيضًا يتجنَّبني أكثر من ذي قبل، ينكفئ على الأوراق ولا يرفع عينيه عنها حتى ميعاد الانصراف، أراه عاريًا ويراني عارية، فنخجل ونصمت تمامًا، أنتهز فرصة خروجه من المكتب وألتهم أذن (فَتْحِيَّة) لتجعل المدير ينقله إلى فرع آخر:

- (آدَم) مش فاهم الشغل لحد دلوقتي، وبصراحة مالوش لازمة معانا.

تأخذ (فَتْحِيَّة) كلماتي معها إلى حجرة المدير وتغيب هناك، وآدم يتأمَّلني بترقُّب وأنا أَعُدُّ أرجله القابعة أمامي، أشم عبقه داخلي، وجوده يشعل الفوضي في المكان، لا بُدَّ من إزاحته بعيدًا، كل شئ يهون من أجل الصغار القادمين، سيصنعون لي بريقًا ويضيفون إليَّ ألقابي لقب أُمٍّ! إنه الأجمل على الإطلاق، وسيَحْبِسُون أباهم في عُشِّي الأسود القبيح،

t.me/qurssan

سيدخِّن بشراهة ويسبُّهم، لكنَّه في النهاية سيرضى بسجنه الأبدي! (آدَم) سيفسد كل شيء! يتأمَّل انتفاخ بطني ويتململ في جلسته، يَوَدُّ هو الآخر أن يترك المكتب، لا أحد يَوَدُّ تَذَكُّر ما حدث، نفهم بعضنا البعض بنظرة واحدة خاطفة، كِلَانا يعرف الحقيقة ويكرهها!

جلستُ أنازع الألم الذي يُلْهِب أحشائي، انفجرت الكائنات الصغيرة داخل جسدي النحيل، هُرِع (آدَم) للخارج مُدَّعِيًا أنه سيطلب المساعدة، كنت أعلم أنه لن يعود للمكتب ثانية، وذلك أفضل! فالمكتب مظلم ومناسب للصغار، تركتهم يتسرَّبون خارج رحمي ويتَّجِهون بالفطرة نحو الزَّنَّات المتقطِّعة؛ ظننتُ في البادئ أنها ذبابة، تحرَّكت معهم نحو الصوت؛ فالصحراء مُتَمِرَّسَة في الصدى، والصدى يُرَدِّد: هيت لك! حجرة المدير، أدركت أن صغاري في خطر، والخطر يتمدَّد على الكنبة وبجوارها المدير عاريًا، "والأندر" الأبيض مُتَّسِخًا ومُلْقًى على الأرضيَّة، كان مُتَعَجِّبًا مما تفعله موظفته الوقور المحترمة، ولا يفهم لماذا خلعت ملابسها أمامه؟! وكيف تحوَّلت أخلاقها بتلك الطريقة؟! فما يعرفه عنها أنها ليست كذلك! لكنَّه على كل حال لم يُضيِّع الفرصة، فمن يملك أن يقول لامرأة جميلة تخلع قميصها: لا؟! لم يَعُد شيء يثير دهشتي الآن، لا يَهُمُّني

t.me/qurssan

ما تفعله (فَتْحِيَّة) أو غيرها، كل شيء ممكن! أسرعتُ أنادي على صغارى لتهرب من المكان في الوقت الذي أراحت (فَتْحِيَّة) ساقها على الأرض، فاصطدم إصبعها الذي يتدَلَّى دومًا خارج شبشبها بعنكبوت سوداء تائهة، نظرت (فَتْحِيَّة) للأسفل بينما تنطلق الكائنات الصغيرة نحو الزَّنَّات المتقطِّعة، يعرفونها بالفطرة، وللفطرة سلطة وهُوِيَّة، اتَّجهوا نحو أقدام (فَتْحِيَّة) يتسلقون جسدها؛ ذبابة ضخمة بدينة ممتلئة باللحم الشهي، مئات الكائنات تتحرَّك على الجلد الأبيض وينهشون فيه، و(فَتْحِيَّة) لا تنتبه، ولا تعرف سبب النقصان المستمر في وزنها؛ ليعلو النشيد الأرضي إلى السماء:

– نحن جوعى ويرهقنا اللحم الطري الأبيض! أنتِ لنا أيتها الحلوة الكريهة، نشتاق إليكِ حد الموت!

لم تلحظ (فَتْحِيَّة) سوى عنكبوت تقف بجوار قدمها، كانت كبيرة نسبيًّا، جسدها دائري مسحوب، تبدو صلعاء بلا شعرة واحدة! خلعت (فَتْحِيَّة) شبشبها بعد أن قطعت لحظتها الشبقة مع مديرها الوسيم، بينما أحاول جاهدة أن أنقذ المسكينة القابعة بجوارها وأنا أردِّد:

– هل القابعة بين أقدامها أنا دون أن أدري؟!

t.me/qurssan

لم يَعُدْ يفرق كثيرًا! ناديت على الصغار ليكملوا وجبتهم الدسمة، فَهُمْ جَوْعَى وعُرَاة! وربما لهم سبع أرجل أيضًا! فهم يُشْبِهُون أباهم (آدَم) دون آدنى شَكٍّ!

"نحن جوعى ويرهقنا اللحم الطري الأبيض! أنتِ لنا أيَّتها الحلوة الكريهة، نشتاق إليك حد الموت"!

نظرت (فَتْحِيَّة) بازدراء وقرف وارتفع صوتها.

- عنكبوت!

تمت

t.me/qurssan

أنت ابن (آدَم) في النهاية أيُّها العَاقُّ!

جلال الدين الرومي

t.me/qurssan

إهداء أخير

إلى الرجل الذي يرى كل هذا الجنون؛ فيبتسم!

t.me/qurssan